جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

تزكية النفس في القرآن الكريم
بين الوسائل والمعوقات

إعداد

دكتور: محمد إبراهيم حامد إبراهيم

وكيل مديرية أوقاف الشرقية للدعوة والبر

حاصل على وسام جمهورية مصر العربية في العلوم والفنون من الطبقة الأولى ٢٠١٧م

إيميل: abuhamed٤@yahoo.Com

العدد السابع

١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م

تزكية النفس في القرآن الكريم بين الوسائل والمعوقات

محمد إبراهيم حامد إبراهيم

قسم: التفسير وعلوم القرآن مديرية أوقاف الشرقية للدعوة والبر

المدينة: فاقوس وزارة الأوقاف

الدولة: جمهورية مصر العربية

إيميل/ abuhamed٤@yahoo.Com

ملخص البحث:

إن تزكية النفس هي عملية تطهير و تنمية شاملة للنفس البشرية ، هدفها استبعاد كل العناصر الموهنة لإنسانية الإنسان و ما ينتج عن هذا الوهن من فساد و تخلف و خسران في الدين والدنيا ، و تنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان و ما ينتج عن هذه التنمية من صلاح و تقدم و فلاح في حياة الأفراد و الجماعة.

إن تزكية النفس، وتطهيرها من الأهداف الكبرىٰ للتربية الإسلامية، وبتحقيقها يسمو المجتمع، ويبتعد عن كل صور المنكرات المتنوعة ، ويأتمر الجميع بأمر الله بالمعروف والعدل والصلاح والبر، والإحسان، ولا يبغي أحد علىٰ أحد ، والدعوة إلىٰ تزكية النفس ينبغي أن تكون دعوة صافية مستقاة من الكتاب و السنة و ما كان عليه سلف الأمة الصالح.

إن تزكية النفس من كل الأدواء المؤثرة علىٰ صحتها وكمالها هي مهمة الرسل عليهم السلام والمصلحين في كل زمان ومكان ، وبتحقيق هذه المهمة يصير الإنسان زاكيًا بحيث يستحقّ في الدّنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة.

ووسائل تزكية النفس متعددة ، منها: الإيمان بالله عز وجل إيمانا حقيقيا ، والمحافظة علىٰ العبادات والشرائع والفرائض، والعلم النافع ، ومحاسبة النفس ، والاستقامة علىٰ أمر الله عز وجل .

وكما أن لتزكية النفس وسائلاً ، فهناك معوقات تقف حجر عثرة في طريق تزكية النفس ، وأهمها: الكبر والرياء ، والعجب .

وقد تناول البحث العناصر التالية:

المبحث الأول: معنىٰ تزكية النفس.

المبحث الثاني: وسائل تزكية النفس.

المبحث الثالث: معوقات تزكية النفس ، وتحت كل مبحث منها عدد من المطالب تناولت القضايا الهامة للبحث، ثم الخاتمة مشتملة على أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية :

معنى تزكية النفس – معنى النفس – النفس في القرآن – قواعد الفطرة – أهمية تزكية النفس – وسائل تزكية النفس – الإيمان بالله – العبادة وأثرها – العلم – محاسبة النفس – الاستقامة – معوقات تزكية النفس – الكبر – حقيقة الرياء – حقيقة العجب.

purification of the self In the Holy Quran Between means and obstacles

Mohammed Ibrahim hamed Ibrahim
Department: (Comparative jurisprudence)
Directorate of Endowments al sharqia To call and righteousness
city: Faqus / Ministry of Endowments
country: Arab republic of Egypt
Email: abuhamedٔ@yahoo.Com

Abstract:

Purification of the soul is a process of comprehensive purification and development of the human soul, whose goal is to exclude all the debilitating elements of human humanity and the resulting corruption, backwardness and loss of religion and the world, and a full development of the elements that achieve human humanity and the resulting goodness of this development And progress and prosperity in the lives of individuals and groups.

Purification and purification of the soul is one of the major goals of Islamic education, and by achieving it, it elevates society and moves away from all forms of various evils. The book and the Sunnah and what was the righteous predecessor of the nation.

Purification of the soul from all the illnesses that affect its health and perfection is the task of the Messengers, peace be upon them, and the reformers at every time and place, and by achieving this task, the person becomes pure so that he deserves in this world the praiseworthy descriptions, and in the hereafter the reward and reward.

The means of purification of the soul are numerous, including: faith in God, the Exalted, may He be glorified and truly faithful, preserving worship, laws and statutes, beneficial

knowledge, accountability, and standing right in the command of God Almighty.

Just as purification of the soul has means, there are obstacles that stand in the way of self-purification, the most important of which are pride, hypocrisy, and amazement.

The research covered the following elements

The first topic: the meaning of self-purification

The second topic: Self-recommendation methods

The third topic: Obstacles to self-purification, and under each topic there are a number of demands that dealt with important issues for research, and then the conclusion includes the most important findings and recommendations.

keywords:

Meaning of self-purification- Meaning of self - The soul in the Qur'an- Common sense rules - The importance of self-purification - Self-recommending means - Faith in God - Worship and its Impact – Science - self accounting – Uprightness - Obstacles to self-purification - Arrogance - The truth of showing off - Fact of wonder

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الذي فتح لأوليائه أبواب الخيرات، وبنعمته وحده أعانهم على عمل الصالحات ، وأسبغ عليهم الهبات الواسعة والرحمات، وكمَّل أخلاقهم حتى ارتقوا أعلى الدرجات ، وخذل المعرضين عنه، فبقيت قلوبهم في الظلم والضلالات ، وسلط عليهم الدنيا فارتكبوا فيها السيئات ، وأشهد أن لا إله إلا الله فاطر الأرض والسماوات، الغني بذاته، المُغني لجميع المخلوقات، وأشهد أن سيدنا وسندنا محمدًا عبده ورسوله أكمل البريات ، وصاحب أزكى نفس بين جميع المخلوقات ، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آلة وأصحابه أولي الفضل والنهى والكرامات.

أما بعد:

فإن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله عز وجل إصلاح البواطن والظواهر، وطيب المقاصد مع حسن السرائر ، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا - وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}(١) ، وقال: أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}(٢) ، فعلق تحقيق الفلاح على من زكى نفسه وطهر قلبه من كل خلق دني، وذكر اسم ربه فصلى وتحلى بالفضائل، وجعل الخيبة والخسارة على من دس نفسه فغمسها بالرذائل ، وكان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يتضرع إلى ربه في طلب التقوى وتزكية النفس من كل رديء فيقول: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا) (٣).

وموضوع تزكية النفس له أهمية من حيث تعلقه بأمور الدنيا والآخرة ، أما تعلقه بأمور الدنيا فذلك واضح جلي في أخلاق الإنسان وسلوكه مع ربه ومع نفسه ومع الناس ، وفي الآخرة لأن الله ضمن النجاة والفلاح يوم القيامة لأصحاب النفوس الشريفة والقلوب النقية الطاهرة السليمة،

---

(١) الشمس: ٩ - ١٠.

(٢)الأعلى: ١٤ - ١٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في الذكر، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل برقم٢٧٢٢.

قال تعالى: { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }[1] ، وأظهر ما قيل في القلب السليم: أنه السالم من الشكوك والأوهام، والخواطر الردية، ومن الأمراض القلبية، ولا يتحقق له هذا إلا بصحبة شيخ كامل، يُخرجه من الأوصاف البشرية، إلى الأوصاف الروحانية، ويحققه بالحضرة القدسية، وإلا بقي مريضاً، حتى يلقى الله بقلب سقيم[2] ، فالقلب السليم هو الذي تعلق بالله فتطهر في سلوكه وتوجه إلى الله .

أهمية الموضوع:

١. ترجع أهمية موضوع تزكية النفس إلى أهمية غايته ، فغايته رضا الله عز وجل ، وأنعم بها من غاية ، وأكرم بها من منزلة، فالقلب لا يصل إلى مناه حتى يتصل بمولاه، ولا يتصل بمولاه حتى يكون صحيحًا سالمًا معافًا زكيًا، فالله جل جلاله طيب لا يقبل إلا طيبًا، فكلما طابت النفس وزكت قربها الله عز وجل، فتأنس بالله عز وجل ، وتسعد بقربه ، وتستغني به عن غيره .

٢. كذلك ترجع أهمية الموضوع إلى كثرة المؤثرات وتنوعها التي تصرف النفوس إلى الطاعة ، فينغمس الإنسان في ملذات الدنيا معجبًا بنفسه ، متغافلاً عن لقاء ربه ، فكان لابد من مذكر له بالله عز وجل وتهذيب نفسه وتزكيتها حتى يُقبل على الله بالكلية ولا ينصرف عنه.

٣. بيان الفرق بين المحمود والمذموم في قضية تزكية النفس ، مع توضيح أفضل المناهج والطرق المؤدية إليها ، واجتناب الطرق المذمومة والوسائل القبيحة التي توهم صاحبها أنه يسعى لتزكية نفسها رغم أنها ستودي به إلى التهلكة.

إن تزكية النفس، وتطهيرها من الأهداف الكبرى للتربية الإسلامية، وبتحقيقه يسمو المجتمع، ويبتعد عن كل صور المنكرات المتنوعة ، ويأتمر الجميع بأمر الله بالمعروف والعدل

---

(١)الشعراء: ٨٧ – ٨٩.

(٢)البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ) جـ ٤ صـ١٤٥.

والصلاح والبر، والإحسان ، ولا يبغي أحد على أحد ، والدعوة إلى تزكية النفس ينبغي أن تكون دعوة صافية مستقاه من الكتاب و السنة و ما كان عليه سلف الأمة الصالح.

والله عز وجل أسأل أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وصل اللهم وسلم وبارك على معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول

معنى تزكية النفس

المبحث الأول

معنى تزكية النفس

• المطلب الأول: معنى التزكية:

التزكية لغة: الطهارة والنماء والزيادة، يقال: زكا يزكو زَكَاءً وزُكُوًّا أي: نما، وأصل التزكية نفي ما يستقبح قولا أو فعلا، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان[1]. فالتزكية من مادة زكى التي تعنى الطهر والبركة والزيادة والنماء ، والمعنى اللغوي للكلمة يفيد الكمال والبعد عن الدنايا.

• **وفي الاصطلاح:** انتزاع ما هو غير مرغوب فيه ، و تعزيز ما هو مرغوب فيه . فهي إذن تعديل للسلوك بلغة التربية الحديثة[2] ، أو هي: عملية تطهير و تنمية شاملة، هدفها استبعاد العناصر الموهنة لإنسانية الإنسان و ما ينتج عن هذا الوهن من فساد و تخلف و خسران و تنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان و ما ينتج عن هذه التنمية من صلاح و تقدم و فلاح في حياة الأفراد و الجماعة[3].

• **التزكية في القرآن الكريم:** وردت مادة زكا في القرآن على ستَّة عشر وجهاً ، ذكرها العلامة الفيروز آبادي[4] رحمه الله في البصائر فقال: وورد في القرآن على ستَّة عشر وجهاً:

وذلك بمعنى الأَقرب إلى المصلحة: {هُوَ أَزكَى لَكُمْ}[5] .

• وبمعنى الحلال: {فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزكَى طَعَاماً}[6] .

---

(١)التوقيف على مهمات التعاريف لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ) صـ٩٦/ فصل الزاي.

(٢)تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية للباحث ماجد عرسان ، صـ٤١.

(٣)مناهج التربية الإسلامية و المربون و العاملون فيها للباحث ماجد عرسان ، صـ١٢٧.

(٤)محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي ٧٢٩ـ٨١٧هـ لغوي وهو عالم بالحديث والفقه ، من أهم مؤلفاته: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، القاموس المحيط ، فتح الباري بالسيل الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري ينظر ترجمته في شذرات الذهب جـ٧/ صـ ١٢٦، ومعجم المؤلفين جـ١٢/ صـ ١١٨.

(٥)النور:٢٨.

- وبمعنى الحُسْن واللطافة: {أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ}[1] أي: ذات جمال.
- وبمعنى الصّلاح والصِّيانة: {أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً}[2] أي: صلاحاً.
- وبمعنى النبوّة والرسالة: {لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً}[3] ، أي: رسولا نبياً.
- وبمعنى الدعوة والعبادة: {وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة}[4] .
- وبمعنى الاحتراز عن الفواحش: {مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً}[5] .
- وبمعنى الإقبال على الخدمة: {وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ}[6] .
- وبمعنى الإيمان والمعرفة: {الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة}[7] أي: لا يؤمنون.
- وبمعنى التوحيد والشّهادة: {وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزكى}[8] .
- وبمعنى الثناءِ والمَدْح: {فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ}[9] .
- وبمعنى النَّقاءِ والطَّهارة: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}[10] .
- وبمعنى التَّوبة من دعوى الرّبُوبيّة: {هَل لَّكَ إِلَى أَن تزكى}[11] .
- وبمعنى أَداءِ الزَّكاة الشرعية: {وَآتُواْ الزكاة}[12] ، {وَيُؤْتُواْ الزكاة}[13]، ولها نظائر كثيرة[14].

---

(١)الكهف:١٩.

(٢)الكهف:٧٤.

(٣)الكهف:٨١.

(٤)مريم:١٢.

(٥)مريم:٣١.

(٦)النور:٢١.

(٧)فاطر:١٨.

(٨)فصلت:٧.

(٩)عبس:٧.

(١٠)النجم:٣٢.

(١١)الشمس:٩.

(١٢)النازعات:١٨.

(١٣)البقرة:٤٣ ، ونظائره كثيرة في القرآن الكريم.

• المطلب الثاني: معنى النفس:

اختلف في حقيقة النفس اختلافًا عظيمًا لكن لعل المراد في مثل هذا المقام هذا الهيكل المخصوص بشرط حلول الروح به ، وهي التي يعبر كل أحد عنها بقوله: أنا وهي المكلفة بالتكليفات الشرعية[٣] ، أوهي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة و الحس و الحركة الإرادية[٤].

وقيل: هي جوهر مشرق للبدن ، فعند الموت ينقطع ضوؤه من ظاهر البدن وباطنه، و أما وقت النوم ، فينقطع ضوؤه عن ظاهره دون باطنه[٥].

النفس في القرآن الكريم:

وردت لفظة (نفس) في عدة مواضع في القرآن الكريم ، و يمكن إجمال معانيها في القرآن الكريم في خمس نقاط ، و هي:

١. النفس بمعنى الروح : و منه قوله تعالى : { وَ لَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ...}[٦] ، وَغَمَرَاتُ الْمَوْتِ جَمْعُ غَمْرَةٍ وَهِيَ شَدَّةُ الْمَوْتِ، وَغَمْرَةُ كُلِّ شَيْءٍ كَثْرَتُهُ وَمُعْظَمُهُ، وَمِنْهُ غَمْرَةُ الْمَاءِ، وَغَمْرَةُ الْحَرْبِ، وَيُقَالُ غَمَرَهُ الشَّيْءُ إِذَا عَلَاهُ

---

(١)البينة:٥.

(٢)بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز جـ٣ صـ ١٣٢ بصيرة في الزكاة.

(٣)بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية لمحمد بن محمد بن مصطفى بن عثمان، أبو سعيد الخادمي الحنفي (المتوفى: ١١٥٦هـ) جـ١ صـ ١٤٠.

(٤)كتاب التعريفات للإمام علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) صـ٢٤٣.

(٥)التوقيف على مهمات التعاريف للإمام زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ) صـ٣٢٧.

(٦)الأنعام:٩٣.

وَغَطَّاهُ.[1]، قال الحافظ ابن كثير : {وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ} أَيْ: بِالضَّرْبِ لَهُمْ حَتَّى تَخْرُجَ أَنْفُسُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ لَهُمْ: {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ} وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتَضَرَ بَشَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْعَذَابِ والنَّكال، وَالْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ، وَالْجَحِيمِ وَالْحَمِيمِ، وَغَضَبِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَتَتَفَرَّقُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَتَعْصَى وَتَأْبَى الْخُرُوجَ، فَتَضْرِبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، قَائِلِينَ لَهُمْ: {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ [وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ] } أَيِ: الْيَوْمَ تُهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ، وَالِانْقِيَادِ لِرُسُلِهِ[2].

٢. النفس بمعنى الإنسان جسدًا وروحًا : و منه قوله تعالى : {مَا خَلْقُكُمْ وَ لَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[3]، فإيجاد القليل أو الكثير عليه وعنده سيّان فلا من الكثير مشقة وعسر، ولا من القليل راحة ويسر، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: {كُنْ فَيَكُونُ} يقوله بكلمته ولكنه يكوّنه بقدرته، لا بمزاولة جهد، ولا باستفراغ وسع، ولا بدعاء خاطر، ولا بطروء غرض[4].

٣. النفس بمعنى القوى العقلية والفكرية في الإنسان : و منه قوله تعالى : {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[5]. أَيْ: تَيَقَّنُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَّهَا لَيْسَتْ سِحْرًا، وَلَكِنَّهُمْ كَفَرُوا بِهَا وَتَكَبَّرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُوسَى. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُعَانِدِينَ[6].

---

(١)مفاتيح الغيب للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) جـ١٣ صـ٦٨

(٢)تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) جـ ٣صـ٣٠٢.

(٣)لقمان:٢٨.

(٤)لطائف الإشارات للقشيري جـ ٣صـ١٣٥.

(٥)النمل:١٤.

(٦)الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ) جـ ١٣صـ١٦٣.

٤. النفس بمعنىٰ القلب ، و ما يتصل به الصدر و الفؤاد ، و منه قوله تعالىٰ : {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً}[١]

٥. النفس بمعنىٰ قوىٰ الخير و الشر في الإنسان : و منه قوله تعالىٰ : { وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ }[٢] ، و قوله تعالىٰ : {و أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} [٣].

صفات النفس في القرآن الكريم:

والنفس في القرآن الكريم لها صفات ثلاث ، وهي:

أولا: النفس المطمئنة: هي التي تم تنورها بنور القلب حتىٰ انخلعت عن صفاتها الذميمة ، و تخلقت بالأخلاق الحميدة[٤]، وَحَقِيقَة الطُّمَأْنِينَة الَّتِي تصير بهَا النَّفس مطمئنة أَن تطمئِن فِي بَاب معرفَة أَسْمَائِهِ وَصِفَاته ونعوت كَمَا لَهُ إِلَىٰ خَبره الَّذِي أخبر بِهِ عَن نَفسه وأخبرت بِهِ عَنهُ رسله فتتلقاه بِالْقبُولِ وَالتَّسْلِيم والإذعان وانشراح الصَّدْر لَهُ وَفَرح الْقلب بِهِ[٥].

ثانيا: النفس اللوامة : وهي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت به عن سنة الغفلة ، كلما صدرت عنها سيئة ، بحكم جبلتها الظلمانية ، أخذت تلوم نفسها و تتوب عنها[٦]. ، وقيل هِيَ الَّتِي لَا تثبت علىٰ حَال وَاحِدَة اخذوا اللَّفْظَة من التَّلَوُّم وَهُوَ التَّرَدُّد فَهِيَ كَثِيرَة التقلب والتلون وَهِي من أعظم آيَات الله فَإِنَّهَا مَخْلُوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فِي السَّاعَة الْوَاحِدَة فضلا عَن الْيَوْم والشهر وَالْعَام والعمر ألوانا متلونة فَتذكر وتغفل وَتقبل وَتعرض وتلطف وَتكشف وتنيب وتجفو وتحب

---

(١)الأعراف:٢٠٥.

(٢)ق:١٦.

(٣)النازعات:٤٠-٤١.

(٤)التعريفات للجرجاني صـ ٢٤٣.

(٥)الروح في الكلام علىٰ أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) صـ ٢٢١.

(٦)التعريفات للجرجاني صـ ٢٤٣.

وَتبْغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطع وتنقى وتفجر إِلَى أَضْعَاف أَضْعَاف ذَلِك من حالاتها وتلونها فَهِيَ تتلون كل وَقت ألوانا كَثِيرَة فَهَذَا قَول ، وَقَالَت طَائِفَة اللَّفْظَة مَأْخُوذَة من اللوم ثمَّ اخْتلفُوا فَقَالَت فرقة هِيَ نفس الْمُؤمن وَهَذَا من صفاتها الْمُجَرَّدَة قَالَ الْحسن الْبَصْرِيّ أَن الْمُؤمن لَا تراهُ إِلَّا يلوم نَفسه دَائِما يَقُول مَا أردْت بِهَذَا لم فعلت هَذَا كَانَ غير هَذَا أولى أَو نَحْو هَذَا من الْكَلَام ، وَقَالَ غَيره هِيَ نفس الْمُؤمن توقعه فِي الذَّنب ثمَّ تلومه عَلَيْهِ فَهَذَا اللوم من الْإِيمَان بِخِلَاف الشقي فَإِنَّهُ لَا يلوم نَفسه على ذَنْب بل يلومها وتلومه على فَوَاته ، وَقَالَت طَائِفَة بل هَذَا اللوم للنوعين فَإِن كل أحد يلوم نَفسه برا كَانَ أَو فَاجِرًا فالسعيد يلومها على ارْتِكَاب مَعْصِيّة الله وَترك طَاعَته والشقي لَا يلومها إِلَّا على فَوَات حظها وهواه ، وَقَالَت فرقة أُخْرَى هَذَا اللوم يَوْم الْقِيَامَة فَإِن كل أحد يلوم نَفسه إِن كَانَ مسيئا على إساءته وَإِن كَانَ محسنا على تَقْصِيره ، وَهَذِه الْأَقْوَال كلهَا حق وَلَا تنَافِي بَينهَا فَإِن النَّفس مَوْصُوفَة بِهَذَا كُله وبإعتباره سميت لوامة وَلَكِن اللوامة نَوْعَانِ : لوامة ملومة وَهِي النَّفس الجاهلة الظالمة الَّتِي يلومها الله وَمَلَائِكَته ، ولوامة غير ملومة وَهِي الَّتِي لَا تزَال تلوم صَاحبهَا على تَقْصِيره فِي طَاعَة الله مَعَ بذله جهده فَهَذِهِ غير ملومة وأشرف النُّفُوس من لامت نَفسهَا فِي طَاعَة الله واحتملت ملام اللائمين فِي مرضاته فَلَا تأْخذهَا فِيهِ لومة لائم فَهَذِهِ قد تخلصت من لوم الله وَأما من رضيت بأعمالها وَلم تلم نَفسهَا وَلم تحْتَمل فِي الله ملام اللوام فَهِيَ الَّتِي يلومها الله عز وَجل[1].

ثالثا: النفس الأمارة: هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، و تأمر باللذات والشهوات الحسية ، و تجذب القلب إلى الجهة السفلية ، فهي مأوى الشرور ، و منبع الأخلاق الذميمة[2].

قواعد الفطرة الإنسانية:

تقوم الفطرة الإنسانية على مجموعة من القواعد أهمها ما يلي:

١- أن الإنسان مفطور على الإيمان بربوبية الله ووحدانيته.

٢- أن الفطرة الإنسانية ذات تكوين مزدوج.

---

(١)الروح لا بن قيم الجوزية صـ ٢٢٣.

(٢)التعريفات للجرجاني صـ ٢٤٣.

٣- أن الإنسان مخلوق باستعدادات متساوية للخير والشر.

٤- أن الإنسان مزود بقدرة واعية كامنة فيه، قادرة على الاختيار الحر للخير والشر سواء.

٥- أن الإنسان حر، لذلك فتبعة أعماله ومسئولياته تقع عليه وحده.

٦- أن النفس الإنسانية هي جماع شخصية الإنسان(١).

من هنا يتضح لنا أن المركب الإضافي تزكية النفس يعني: تطهيرها من كل قبيح حتى تعود إلى سيرتها الأولى التي فطرها الله عز وجل عليها من التوحيد الخالص والبعد عن الشرك وكل ما يعكر صفاء فطرتها ونقاء خلقتها، ويكون بإلزامها بالآداب الحميدة والأخلاق الفاضلة ، وتطهيرها من جميع الأدران أدران الشرك وأدران الكبائر وأدران سوء الأخلاق والأعمال والأقوال وتوجيهها إلى زيادة الإيمان و العمل على تقويته في نفس صاحبه، والطريق إلى ذلك العلم النافع والعمل الصالح و فعل المأمورات و ترك المنهيات كي تسمو بها إلى أعلى درجات الكمال البشري فيستسلم لشرع الله عز رجل، بعد تحقق قلبه بالإيمان، وساعتها سيدخل العبد في حضرة ربه، فتزول الوحشة بينه وبين ربه عز وجل.

فالتزكية لها وجهان :

الوجه الأول: التخلية وهي ترك الرذائل والنواهي والأخلاق الذميمة التي نهى عنها الشرع.

و الوجه الثاني: التحلية و هي الاتصاف و التزين و التجمل بالأخلاق الحميدة التي أمر بها الشرع الشريف.

---

(١)مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها لعلي أحمد مدكور صـ ٨٤.

• المطلب الثالث: أهمية تزكية النفس

لقد أمر الله تعالى العباد بتزكية النفوس وحث عليها في كتابه في كثير من الآيات المباركات ، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}[1] ، وقد أقسم الله عز وجل في سورة الشمس من كتابه أحد عشر قسمًا متواليًا على أن صلاح حال العبد مرتبط بتزكية نفسه، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}[2] ، وهذه التزكية هي محض فضل من الله تعالى، قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[3] ، وقال تعالى: { بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً }[4] لأن الإنسان ليس له أن يزكيَ نفسه؛ لأنه قد ينحاز إليها ويمدحها بالباطل ، ومدار التزكية على التقوى، وهذه لا يعلمها إلا الله[5].

كذلك أخبر ربنا تبارك وتعالى في كتابه أنه جعل الغاية من بعثة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم تزكية قلوب الناس ، فقال تعالى في مقام الامتنان بذلك:{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }[6]. والتزكية: هي التطهير والتنقية ، أي: لقد أعطى الله- تعالى- المؤمنين من النعم ما أعطى، لأنه قد بعث فيهم رسولا من جنسهم يقرأ عليهم آيات الله التي أنزلها لهدايتهم وسعادتهم، وَيُزَكِّيهِمْ أي: يطهرهم من الكفر والذنوب، أو يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كانوا عليه من دنس

---

(١)الأعلى: ١٤ – ١٥.

(٢)الشمس:٩.

(٣)النور:٢١.

(٤)النساء: ٤٩.

(٥)التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر جـ٢ صـ٨٢٧.

(٦)الجمعة: ٢.

الجاهلية والاعتقادات الفاسدة.[1]، وتزكية النفس هي مهمة الرسل عليهم السلام ، قال العلامة ابن القيم[2]رحمه الله: فَإِنَّ تَزْكِيَةَ النُّفُوسِ مُسَلَّمٌ إِلَى الرُّسُلِ. وَإِنَّمَا بَعَثَهُمُ اللهُ لِهَذِهِ التَّزْكِيَةِ وَوَلَّاهُمْ إِيَّاهَا ، وَجَعَلَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ دَعْوَةً، وَتَعْلِيمًا وَبَيَانًا، وَإِرْشَادًا، لَا خَلْقًا وَلَا إِلْهَامًا. فَهُمُ الْمَبْعُوثُونَ لِعِلَاجِ نُفُوسِ الْأُمَمِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[3] ، وَقَالَ تَعَالَى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ - فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[4] .

وَتَزْكِيَةُ النُّفُوسِ: أَصْعَبُ مِنْ عِلَاجِ الْأَبْدَانِ وَأَشَدُّ. فَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْخَلْوَةِ، الَّتِي لَمْ يَجِئْ بِهَا الرُّسُلُ: فَهُوَ كَالْمَرِيضِ الَّذِي عَالَجَ نَفْسَهُ بِرَأْيِهِ، وَأَيْنَ يَقَعُ رَأْيُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّبِيبِ؟ فَالرُّسُلُ أَطِبَّاءُ الْقُلُوبِ. فَلَا سَبِيلَ إِلَى تَزْكِيَتِهَا وَصَلَاحِهَا إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِمْ. وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، وَبِمَحْضِ الِانْقِيَادِ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُمْ[5].

وتزكية النفس سبب الفوز بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، كما قال عز وجل: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى* جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى} [6] . أي طهّر نفسه من الدنس والخبث والشرك.

---

(١)التفسير الوسيط للقرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي رحمه الله جـ٢ صـ٣٢٦.

(٢)الإمام حمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين بن قيم الجوزية ولد بدمشق ، وتتلمذ علي أيدي كبار علماء عصره وأشهرهم شيخ الإسلام ابن تيمية ، أهم مؤلفاته مدارج السالكين ، الروح ، وزاد المعاد في هدي خير العباد وغيرها . ت ٧٥١ هـ .

(٣)الجمعة: ٢.

(٤)البقرة: ١٥١ – ١٥٢.

(٥)مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للعلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)جـ٢ صـ٢٠٠.

(٦)طه: ٧٥- ٧٦.

وقد وردت التزكية في القرآن الكريم مقترنة بالتعليم في أربع آيات ، في إحداها تقدم لفظ التعليم على التزكية، وهي قوله تعالى:{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}(١) ، وفي بقية المواضع تقدمت التزكية على التعليم، وهي قوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}(٢) وقوله:{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}(٣) ، وقوله سبحانه:{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}(٤) ، فتقدمت التزكية على العلم لأن الجانب الخُلُقي يأتي قبل الجانب التعليمي ، ولأن الإنسان إذا كان غير مزكّى في خلقه لن يتلقى الكتاب والحكمة على مُراد الله تعالى، فالتزكية هي أحد أركان المهمّة المحمدية الأربع (تلاوة الآيات، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة، ثم التزكية.

ولأهمية تزكية النفس كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يحققها له ، فيقول صلى الله عليه وسلم: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ، الْقَبْرِ اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا)(٥).

وعدَّها النبي صلى الله عليه وسلم ضمن ثلاثة أمور يتذوق بها العبد طعم الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

---

(١)البقرة: ١٢٩.

(٢)البقرة: ١٥١.

(٣)آل عمران: ١٦٤.

(٤)الجمعة: ٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه في الذكر، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل برقم٢٧٢٢.

هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بِشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ) ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا تَزْكِيَةُ النَّفْسِ؟ فَقَالَ: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»(١).

وبزكاء النّفس وطهارتها يصير الإنسان زاكيا بحيث يستحقّ في الدّنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرّى الإنسان ما فيه تطهيره، واسم الزّكاة ينسب تارة إلى العبد لاكتسابه ذلك نحو قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها}(٢) ، وتارة إلى الله تعالى لكونه فاعلا لذلك في الحقيقة نحو: {بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ}(٣). وتارة إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم، نحو: {خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها}(٤)، وتارة إلى العبادة الّتي هي آلة في ذلك نحو: {وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً }(٥) ، وقوله تعالى: {لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا}(٦) أي زكيّ الخلقة عن طريق الاجتباء، وهو أن يجعل سبحانه بعض عباده عالمًا وطاهر الخلق لا بالتّعلّم

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم٥٥٥، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني برقم ١٠٦٢، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الزكاة / بَابُ لَا يَأْخُذُ السَّاعِي فِيمَا يَأْخُذُ مَرِيضًا، وَلَا مَعِيبًا ، وَفِي الْإِبِلِ عَدَدُ الْفَرْضِ صَحِيحٌ قَدْ رُوِّينَا فِي أَحَادِيثِ الصَّدَقَاتِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"وَلَا يُؤْخَذُ فِي الصَّدَقَاتِ هَرِمَةٌ ، وَلَا ذَاتُ عَوَارٍ " ، وَفِي بَعْضِهَا: " وَلَا ذَاتُ عَيْبٍ ".برقم ٧٢٧٥، وابن حجر في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير جـ٢ صـ ٢٠٣ برقم ٨١٩، وقال: وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَجَوَّدَ إسْنَادَهُ، وَسِيَاقُهُ أَتَمُّ سَنَدًا وَمَتْنًا.

(٢)الشمس: ٩.

(٣)النساء: ٤٩.

(٤)التوبة: ١٠٣.

(٥)مريم: ١٣.

(٦)مريم: ١٩ .

والممارسة بل بقوّة إلهيّة، كما يكون لكلّ الأنبياء والرّسل، ويجوز أن يكون تسميته بالزكيّ لما يكون عليه في الاستقبال وفي الحال، والمعنى سيتزكّى[1].

وكما ورد الأمر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بضرورة تزكية النفس كذلك ورد النهي عن تزكية النفس، مما يتوهم البعض من وجود تناقض أو اختلاف في أحكام القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وهذه مسألة تناولها العلماء قديمًا تحت عنوان: مشكل القرآن أو موهم الاختلاف والتناقض[2].

قال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[3].

وذكر الحافظ ابن كثير[4] رحمه الله في تفسيره جملة من الأحاديث التي تنهى عن تزكية النفس منها: ما رواه مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ يزيد بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ: سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْمِ، وَسُمِّيتُ بَرَّة، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ

---

(١)ينظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ﷺ- جـ٦ صـ٢١٩٨.

(٢)وَالْمُرَادُ بِهِ مَا يُوهِمُ التَّعَارُضَ بَيْنَ الْآيَاتِ، وَكَلَامُهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً}، وَلَكِنْ قَدْ يَقَعُ لِلْمُبْتَدِئِ مَا يُوهِمُ اخْتِلَافًا وَلَيْسَ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ، فَاحْتِيجَ لِإِزَالَتِهِ. ينظر: الإتقان في علوم القرآن للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) جـ٣ صـ٨٨.

(٣) النجم:٣٢.

(٤)عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير بن ضوء بن كثير البصري ثم الدمشقي ، الشافعي ، ولد سنة ٧٠٠هـ أو بعدها بقليل أهم مؤلفاته تفسير القرآن العظيم ، البداية والنهاية ، طبقات الشافعية ، توفي سنة ٧٧٤هـ . انظر في ترجمته الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣ ، طبقات المفسرين للداودي ٣٢٧ .

مِنْكُمْ). فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟ قَالَ: (سَمُّوهَا زَيْنَبَ)[1] ، وَما رَوَاهُ الْإِمَامُ البخاري عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بكْرَة، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَيْلَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ -مِرَارًا-إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فُلَانًا -وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا-أَحْسَبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ)[2]، وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكِيع، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَا حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُثْمَانَ فَأَثْنَى عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ، قَالَ: فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا لَقِينَا الْمَدَّاحِينَ أَنْ نَحْثُوَ فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ[3].

ولكي نزيل ما ظاهره التناقض لابد أن نعلم أننا أمام حالتين مختلفتين:

الحالة الأولى: حالة العجب بالنفس والكبر والغرور ، وعليها تحمل الآيات والأحاديث التي تنهى عن تزكية النفس، فَإِن ترك تَزْكِيَة النَّفس أبعد من الرِّيَاء وَأقرب إِلَى الْخُشُوع.

الحالة الثانية: حالة شكر الله على نعمه والتحدث بها ، وعليها تحمل الآيات والأحاديث الآمرة بتزكية النفس ، لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر لله- تعالى[4]، قال الإمام النووي[5] في الأذكار: اعلم أن ذكرَ محاسن نفسه ضربان: مذموم ؛ ومحبوب، فالمذمومُ أن يذكرَه للافتخار وإظهار

---

(١)رواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب/ بَابُ اسْتِحْبَابِ تَغْيِيرِ الِاسْمِ الْقَبِيحِ إِلَى حَسَنٍ، وَتَغْيِيرِ اسْمِ بَرَّةَ إِلَى زَيْنَبَ وَجُوَيْرِيَةَ وَنَحْوِهِمَا/ ٢١٤٢.

(٢)رواه البخاري في صحيحه كتاب الشهادات/ بَابٌ: إِذَا زَكَّى رَجُلٌ رَجُلًا كَفَاهُ/ ٢٦٦٢، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق / باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط / ٣٠٠٠،

(٣)رواه أحمد في المسند برقم ٢٣٨٢٦ ، وينظر: تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) جـ ٧صـ٤٦٣ .

(٤)تفسير الكشاف جـ ٤ صـ ٢٣.

(٥)الإمام محيي الدين يحيى بن شرف بن مري، الحزامي الحوراني الشافعي، الحافظ الثقة القدوة الورع، شيخ الإسلام صاحب المصنفات، مشهور. مات سنة ست وسبعين وستمائة. تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٠.

الارتفاع والتميّز على الأقران وشبه ذلك، والمحبوبُ أن يكونَ فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، أو ناصحاً أو مشيراً بمصلحة، أو معلماً، أو مؤدباً، أو واعظاً، أو مذكِّراً، أو مُصلحاً بين اثنين، أو يَدفعُ عن نفسه شرّاً، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنَه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقربَ إلى قَبول قوله واعتماد ما يذكُره، أو أن هذا الكلام الذي أقوله لا تجدونه عند غيري فاحتفظوا به، أو نحو ذلك، وقد جاء في هذا المعنى ما لا يحصى من النصوص[1].

فالتزكية إذا هي :إدراك حقيقة لا يعرف مداها إلا مَن عَرَفها معرفة تامة، فهي عبارة عن معرفة ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – والتصديق به عقدًا، والإقرار به نطقًا، والانقياد محبة وخضوعًا، والعمل به ظاهرًا، والقيام بالدعوة لما جاء به بحسب الإمكان، والمحبة في الله، والبغض فيه، والعطاء في الله، والمنع فيه، وأن يكون الله وحدَه المعبود، ومتابعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ظاهرًا وباطنًا، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى ما سوى الله ورسوله؛ "فالتزكية شيء زائد عن العلم؛ إذ العلم يعطي القواعد والبيان لكل شيء، فالتزكية تطبيق لهذا العلم على النفس البشرية وأمراضها وأغراضها، ومعرفة التطبيب وطرقه، ومعرفة بالكمال، وكيفية النقل إليه، وأدوات ذلك فراسة خاصة بكل نفس؛ لنقلها من حال إلى حال، وهذا شيء للكسب فيه نصيب، ولكن عطاء الله هو الأساس[2].

---

(١)الأذكار لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) صـ٢٧٩.

(٢)الأساس في التفسير، لسعيد حوى جـ١، صـ٣٢٢، ٣٢٣.

المبحث الثاني:

وسائل تزكية النفس

المبحث الثاني:

☐ وسائل تزكية النفس

المطلب الأول: الإيمان بالله عز وجل :

لو بحثنا في قواميس اللغة ومعاجمها عن كلمة تكسب النفوس تزكية راحة ، والقلوب طمأنينة ، والوجوه استبشارًا ما وجدنا أفضل من كلمة الإيمان بالله عز وجل ، تلك الكلمة التي جمعت فأوعت سمو العلاقة بين العبد وربه ، فالإيمان بالله واليوم الآخر هو الأساس والقاعدة الأولى لهذا الدين المتين ، وما من نبي ولا رسول من رسل الله إلا جاء بدعوة مركوزة على الإيمان بالله واليوم الآخرة، والإيمان بالله تعالى لا يتم إلا باستسلام الكيان الإنساني كله قلبًا وعقلاً وسلوكًا لحكم الله وهيمنته على خلقه، فيتجرد بكل كيانه لله محققًا بذلك قول الله عز وجل: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}(١).

ولقوة أمر الإيمان والاعتقاد في الدين بيَّن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن مدار النجاح والفلاح على ذلك بل وكل أمور الحياة لا قيمة لها ولا وزن إذا لم تقترن بعقيدة صحيحة ، يشهد لذلك أيضًا حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ابْنَ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ ؟ قَالَ : " لا يَنْفَعُهُ ، أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ" (٢)،ولو كان أحدُنا جديرًا بالغض عن اعتقاده وإيمانه لما صنع لكان أبو طالب فلقد أحب وناصر ومنع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان له عضدًا وحرزًا ولكن أمر الله كان قدرًا مقدورًا، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ

---

(١)الأنعام : ١٦٣.

(٢)أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان/ باب: الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مِنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ لَا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ / برقم ٥١٧.

عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ» فَنَزَلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}(١)، وَنَزَلَتْ: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}(٢).

إن الإيمان بالله عز وجل هو أساس الاستقامة، وله أركان ستة هي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، ولا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا ، وهذه الأركان هي الواردة في حديث جبريل المشهور ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: (مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ) ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: (يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟) قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) (٣).

فالإيمان بالله عز وجل قائم على أركان ستة:

---

(١)التوبة: ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: المناقب / باب: قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ/ برقم ٣٨٨٤ .

(٣)رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان / بَابُ معرفة الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ/ ١.

الأول: الإيمان بالله عز وجل بمعنى التصديق والاعتراف والاعتقاد والإيمان بتفرده سبحانه وتعالى بكل صفات الكمال ، وأنه لا شريك ولامثيل ولا نظير له في كماله لا يجب عليه شيء بإيجاب غيره، موصوف بالحكمة ولا حاكم سواه.

الثاني: الإيمان بالملائكة ، وهم أحد العوالم الغيبية ، خلقهم الله عز وجل من النور عابدون لله تعالى، وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ومنحهم الانقياد التام لأمره، والقوة على تنفيذه، ولا يحصي عددهم إلا الله تعالى، وورد تعيين بعضهم باسمه كجبريل وميكائيل واسرافيل ومالك، وورد تعيين نوعهم كحملة العرش والحفظة والكتبة، ويجب الإيمان بهم اجمالاً وتفصيلاً.

الثالث: الإيمان بالكتب المنزلة، والمراد بها الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله عليهم السلام رحمة للخلق، وهداة للحق ، وهي من كلام الله تعالى كلها هدى ونور ويجب الإيمان بها إجمالاً، و تفصيلا بما سمَّاه الله تعالى منها التوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

رابعا: الإيمان بالرسل: والرسول هو من أُوحي إليه من البشر بشرع وأمر بتبليغه، وأول الرسل نوح وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام جميعًا ، ودعوته عامة لجميع الإنس والجن. ، ولم تخل أمة من الأمم من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة ، قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}(١) ، أرسلهم الله تعالى لهداية الخلق في أمور المعاش والمعاد، ولا يعلم عددهم إلا الله ، قال تعالى:{وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}(٢) ، وسمَّى الله منهم في كتابة خمسًا وعشرين ، وهم : آدم إدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ويونس وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون واليسع وذو الكفل وداود وزكريا وسليمان وإلياس ويحي وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١)فاطر:٢٤.

(٢)النساء: ١٦٤.

ويجب الإيمان بهم جميعًا ، وعدم التفريق بينهم ، فرسالتهم حق من الله تعالى فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع، قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ}(١) ، وقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }(٢)

خامسا: الإيمان باليوم الآخر: وهو يوم القيامة الذي يبعث الله الناس فيه للحساب والجزاء وسُمي بذلك لأنه لا يوم بعده ، وكل ما ورد في شأن اليوم الآخر وأحداثه حق يجب الإيمان بها .

سادسا: الإيمان بالقدر: القدر: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته. فيجب الإيمان بالقدر خَيره وشره والتصديق بالأحاديث فِيهِ وَالْإِيمَان بهَا لَا يُقَال لم وَلَا كَيفَ إِنَّمَا هو التصديق والإيمان بها ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كفي ذلك وأحكم له فعليه الإيمان به والتسليم ، فكل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ، فهو سبحانه الفعال لما يريد لا يكون شيء إلا بإرادته ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم أمر يخرج عن تقديره أو يصدر إلا عن تدبيره .

هذه هي الأركان الأساسية والتي عليها قوام الإيمان بالله عز وجل ، فمن تطرق إلى إيمانه خلل لم يقبل منه عمل ، ومن صح إيمانه كان القليل من عمله كثيرًا ، ولذا وجب على كل عاقل ألا يدخر وسعًا في تصحيح إيمانه وأن يكون الحصول عليه والاستيثاق منه نهاية سؤله لا يعدل به شيئاً ولا يتأخر فيه لحظة(٣).

---

(١)الشعراء: ١٠٥.

(٢)النساء: ١٥٠-١٥٢.

(٣)بتصرف واختصار من رسالة التوحيد للعلامة محمد بن إسماعيل الشهيد، جـ١ ،صـ ٢٤.

ولابد من اقتران العمل الصالح بالإيمان بالله عز وجل ، فالعمل الصالح هو دليل الإيمان بالله وعنوانه ، لذلك قرن الله عز وجل العمل الصالح بالإيمان بالله في آيات كثرة منها:

١. قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ }(١).

٢. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(٢).

٣. وقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}(٣) .

٤. وقوله تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً}(٤) .

٥. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً}(٥).

٦. وقوله تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً}(٦).

٧. وقوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ }(٧).

٨. وقوله تعالى: {وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}(٨).

---

(١)البقرة : ٢٥.

(٢)[البقرة: ٨٢.

(٣)آل عمران : ٥٧.

(٤)النساء : ٥٧.

(٥)النساء : ١٢٢

(٦)النساء : ١٢٤.

(٧)النساء : ١٧٣.

(٨)المائدة : ٩.

٩. وقوله تعالىٰ: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}(١).

١٠. وقوله تعالىٰ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً}(٢).

١١. وقوله تعالىٰ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ}(٣).

١٢. وقوله تعالىٰ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}(٤).

١٣. وقوله تعالىٰ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}(٥).

١٤. وقوله تعالىٰ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}(٦).

١٥. وقوله تعالىٰ: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(٧).

وغير ذلك من الآيات التي اقترن فيها الإيمان بالعمل الصالح مما يؤكد العلاقة التلازمية بينهما لتحقيق الغاية العظمىٰ المتمثلة في تزكية النفس.

وإذا تحقق الإيمان في القلب وخالطت بشاشته القلوب ، اطمأن وهنأ بعطاء الله ، وإذا اطمأن القلب استغنىٰ بالإيمان والعلم المُتلّقي من الوحي، وسكن واستأنس بربه، واشتغل بما يرضيه ،

---

(١)المائدة : ٩٣.

(٢)مريم : ٩٦.

(٣)لقمان : ٨.

(٤)فصلت : ٨.

(٥)البروج : ١١.

(٦)البينة : ٧.

(٧)التغابن : ٩.

وفتح له بابُ الرضى عن ربه، الأملَ بمعونته وتوفيقه له في الدنيا، والرضى عليه وإكرامه في الآخرة.

كما أن القلب إذا اطمأن زال قلقه ومرضه الذي يدفعه إلى الأفكار الهدامة المخالفة، أو ممارسة أساليب اللهو والترفيه ونحوها التي كثيراً ما تكون ستاراً لترويجها[1].

(١)أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع جـ٢ صـ ٥٢١.

المطلب الثاني: العبادة وأثرها في تزكية النفس:

العبادة في اللغة: مصدر عَبَدَ، وعَبَدْتُ اللهَ أَعْبُدُهُ عِبَادَةً؛ أي: بمعنى الانقِيَادُ وَالخُضُوع، ومنها العَابِدُ، وَالجَمْعُ عُبَّادٌ وَعَبَدَةٌ، وَالعَبْدُ خِلَافُ الحُرِّ، وَهُوَ عَبْدٌ بَيِّنُ العَبْدِيَّةِ وَالعُبُودَةِ وَالعُبُودِيَّةِ، وجمعها أَعْبُدٌ وَعَبِيدٌ وَعِبَادٌ، ويُقال: أَعْبَدْتُ زَيْدًا فُلَانًا؛ أي مَلَّكْتُهُ إِيَّاهُ لِيَكُونَ لَهُ عَبْدًا، وَاسْتَعْبَدَهُ وَعَبَّدَهُ بِالتَّثْقِيلِ؛ أي اتَّخَذَهُ عَبْداً[1].

وفي اصطلاح علماء الشرع: هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجِهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة ، وَكَذَلِكَ حب الله وَرَسُوله وخشية الله والإنابة إِلَيْهِ وإخلاص الدَّين لَهُ وَالصَّبْر لحكمه وَالشُّكْر لنعمه وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ والتوكل عَلَيْهِ والرجاء لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْف من عَذَابه وأمثال ذَلِك هِيَ من الْعِبَادَة لله.

وَذَلِكَ أَن الْعِبَادَة لله هِيَ الْغَايَة المحبوبة لَهُ والمرضية لَهُ الَّتِي خلق الْخلق لَهَا كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[2] ، وَبهَا أرسل جَمِيع الرُّسُل كَمَا قَالَ نوح لِقَوْمِهِ : {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ }[3] ، وَكَذَلِكَ قَالَ هود وَصَالح وَشُعَيْب وَغَيرهم لقومهم ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ}[4] وَقَالَ تَعَالَى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

---

(١)المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للإمام أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) جـ٢ صـ٣٩٨ مادة عبد.

(٢)الذاريات: ٥٦.

(٣)الْأَعْرَاف: ٥٩ ،

(٤)النَّحْل: ٣٦.

فَاعْبُدُونِ }[1] وَقَالَ تَعَالَىٰ : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ }[2] كَمَا قَالَ فِي الْآيَة الْأُخْرَىٰ: { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ }[3] ، وَجعل ذَلِك لَازِما لرَسُوله إِلَى الْمَوْت كَمَا قَالَ: { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ }[4] .

وَبِذَلِك وصف مَلَائِكَته وأنبياءه فَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}[5] وَقَالَ تعال : { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ }[6] .

وذم المستكبرين عَنْهَا بقوله: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }[7] .

ونعت صفوة خلقه بالعبودية لَهُ فَقَالَ تَعَالَىٰ: { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}[8] وَقَالَ: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا }[9] الْآيَات.

---

(١)الْأَنْبِيَاء: ٢٥.

(٢)الْأَنْبِيَاء: ٩٢.

(٣)الْمُؤْمِنُونَ: ٥١-٥٢.

(٤)الْحجر: ٩٩.

(٥)الْأَنْبِيَاء:١٩-٢٠.

(٦)الْأَعْرَاف: ٢٠٦.

(٧)غَافِر:٦٠.

(٨)الْإِنْسَان: ٦..

(٩)الْفرْقَان:٦٣-٧٧.

وَلما قَالَ الشَّيْطَان: {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }(١) قَالَ الله تَعَالَىٰ : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}(٢) .

وَقَالَ فِي وصف الْمَلَائِكَة بذلك : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ }(٣) وَقَالَ تَعَالَىٰ: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا *لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا* أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا }(٤) .

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَن الْمَسِيح الَّذِي ادعيت فِيهِ الإلهية والبنوة: { إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ }(٥) وَلِهَذَا قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فِي الحَدِيث الصَّحِيح (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ)(٦)، وَقد نَعته الله بالعبودية

---

(١)الْحجر: ٣٩-٤٠.

(٢)الْحجر: ٤٢.

(٣)الْأَنْبِيَاء:٢٦ -٢٨.

(٤)مَرْيَم: ٨٨-٩٥.

(٥)الزخرف: ٥٩.

(٦)رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء / بَابُ قَوْلِ اللهِ {وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [مريم: ١٦] "/ برقم٣٤٤٥، وأحمد في المسند برقم ١٤٩، واللفظ المذكور له ،ولفظ البخاري: (لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ) وابن حبان في صحيحه باب بدأ الخلق/ ذِكْرُ الْعِلَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا زُجِرَ عَنْ هَذَا الْفِعْلِ/ برقم٦٢٣٩، والطبراني في الأوسط برقم ١٩٣٧.

فِي أكمل أَحْوَاله فَقَالَ فِي الْإِسْرَاء: {سُبْحَانَ الَّذِي أسرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا}[1] وَقَالَ فِي الإيحاء { فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ }[2] وَقَالَ فِي الدعْوَة :{ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } [3] وَقَالَ فِي التحدي:{ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ }[4] .

والمقصود من شعائر العبادة في الإسلام الشعائر الأربع الكبرىٰ وهي: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ، هذه الشعائر الأربع من إضافة الشهادتين عليها تمثل جميعًا أركان الإسلام ودعائمه ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)[5] .

وتمثل هذه الأركان الأربع الحد الأدنىٰ من العبادة وليس كل العبادة ، وكلما استزاد العبد منها ازداد قربًا من الله عز وجل.

ومما لا شك فيه أن من أعظم غايات وحكم مشروعية العبادات في الإسلام تزكية النفوس وتهذيبها والترقي بها نحو الكمال في محاسن الأخلاق ومكارمها ، فالعبادات كلها ما هي إلا عمليات التزكية بحيث يصير المسلم المقيم لفرائض الله تعالىٰ من أحسن الناس أخلاقًا ، وأنبلهم سلوكًا وأكرمهم شيمًا وهذه الغاية نلمسها في كل شعيرة من شعائر الإسلام وكل ركن من أركانه.

---

(١)الْإِسْرَاء:١.

(٢)النَّجْم : ١٠.

(٣)الْجِنّ: ١٩.

(٤)الْبَقَرَة:٢٣ ، وينظر: العبودية لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) صـ٤٤.

(٥)رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان/ بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسٍ» برقم ٨، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان/ بَابُ قول النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ برقم ١٦.

أولاً: الصلاة: أما أصلها لغة فيرجع إلى معنيين احدهما: الدعاء والتبرك فمنه: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ}[1] ، وسمي الدعاء صلاة لأن قصد الداعي جميع المقاصد الحسنة الجميلة والمواهب السنية الرفيعة أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً دينًا ودنيا بحسب إختلاف السائلين ففيه معنى الجمعية كما سيأتي والله أعلم.

والمعنى الثاني: العبادة، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا، فَلْيَطْعَمْ)[2] وقد عبر بالمعنى الأول أيضاً وهو الأكثر وقيل أن الصلاة في اللغة الدعاء وهو على نوعين دعاء عبادة ودعاء مسألة فالعابد داع كالسائل وبهما في قوله تعالى أدعوني أستجب لكم فقيل أطيعوني أثبكم وقيل سلوني أعطكم وقوله {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[3] .

وشرعاً: أَقوالٌ وأَفعالٌ مخصوصةٌ مفتَتَحَةٌ بالتكبير ومُختتمةٌ بالتسليمِ.[4]

وأرادوا بالأقوال: القراءة، والتكبير، والتسبيح، والدعاء، ونحوه ، وبالأفعال: القيام، والركوع، والسجود، والجلوس، ونحوه.

وإذا نظرنا إلى معنى الصلاة لغةً وشرعاً، وجدنا الصلة بينهما وثيقة؛ فالدعاء، واللزوم، والتعظيم. كلها معانٍ موجودة في الصلاة بمعناها الشرعي، وأُطْلِقَت على الصلاة، كلها من باب تسمية الشيء ببعض أجزائه، وإن كانت مأخوذة من "الصَّلَوَين" فهما موضعان في الإنسان يقوم

---

(١)التوبة: ١٠٣.

(٢)رواه مسلم في صحيحه كتاب: الحج / بَابُ زَوَاجِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَنُزُولِ الْحِجَابِ، وَإِثْبَاتِ وَلِيمَةِ الْعُرْسِ/ برقم١٤٣١.

(٣)البقرة: ١٨٦، وينظر: القَولُ البَدِيعُ في الصَّلاةِ عَلَى الحَبِيبِ الشَّفِيعِ لشمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) جـ١ صـ١٣.

(٤)عمدة الأحكام من كلام خير الأنام صلى الله عليه وسلم للإمام عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، تقي الدين (المتوفى: ٦٠٠هـ) جـ١ صـ٥٣.

عليهما الركوع والسجود، فلا ركوع ولا سجود بلا تحريك لهما، فأخذ اسم الصلاة منهما، كما أخذ اسم البيع من "الباعين" اللذين يمدهما البائع والمشتري[1] .

والصلاة أعظم أركان الإسلام ودعائمه العظام بعد الشهادتين، ومما يدل على عظم شأنها أن الله لم يفرضها في الأرض بواسطة جبريل وإنما فرضها بدون واسطة ليلة الإسراء والمعراج فوق سبع سماوات ، أوجبها الله على كل حال ولم يعذر بها مريضًا، ولا خائفًا، ولا مسافرًا، ولا غير ذلك، بل وقع التخفيف تارة في عددها ، وتارة في شروطها ، وتارة في أفعالها، ولم تسقط مع ثبات العقل.

والصلاة مفتاح كل خير، تعطي القلب أنسا وسعادة، وتعطي الروح بشرا وطمأنينة، وتعطي الجسد نشاطا وحيوية، الإنسان لا يستمر على حال واحدة، فإن وجدته صافيا ساعة تعكر أخرى، وإن وجدته مسرورا من شيء، نكد عليه شيء آخر[2].

وتتعدد أنواع الصلاة، فللحضر صلاة، وللسفر صلاة وللمرض صلاة، وللخوف صلاة وللجمعة صلاة، وللعيدين صلاة، وللجنازة صلاة، وللإستسقاء صلاة، وللقيام صلاة وللضحى صلاة، وكأنها بهذا التعدد تطبب الإنسان، تداوي أسقامه، وتعالج علله وهمومها المتنوعة المتغيرة[3].

وحتى تتحقق الغاية من الصلاة وتحقيق تزكية النفس لابد من مراعاة حُضُور الْقَلْبِ ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما ، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن

---

(١) دعائم التمكين للمملكة العربية السعودية على ضوء قوله تعالى: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} للشيخ حمد بن حمدي الصاعدي العدد المائة وعشرة – السنة الثانية والثلاثون – ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، صـ٥٧.

(٢)الصلاة وصف مفصل للصلاة بمقدماتها مقرونة بالدليل من الكتاب والسنة، وبيان لأحكامها وآدابها وشروطها وسننها من التكبير حتى التسليم للدكتور عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار صـ٣٣.

(٣)المرجع السابق.

فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب [1] والقلب الحاضر في الصلاة صلاة صاحبه صحيحة تنهاه عن الفحشاء والمنكر فتحسن أخلاقه وتزكو نفسه ، قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}[2] وهي تلك الصلاة التي يكون العبد فيها معظماً ربه، خائفاً منه، راجياً رحمته، فحظ كل واحد من صلاته إنما هو بقدر خوفه من الله، وتأثر قلبه بخشيته، لأن الله سبحانه إنما ينظر إلى قلوب عباده لا إلى صورهم الظاهرة، ولذا قال تعالى: {وأقم الصلاة لذكرى} ، ومن غفل قلبه عن ربه لا يكون ذاكراً له، فلا يكون مصلياً صلاة حقيقية ،فهذه هي الصلاة في نظر الدين، وهي بهذا المعنى لها أحسن الأثر في تهذيب النفوس، وتقويم الأخلاق، فإن في كل جزء من أجزائها تمريناً على فضيلة من الفضائل الخلقية، وتعويداً على صفة من الصفات الحميدة ، وإليك جملة من أعمال الصلاة وآثارها في تهذيب النفوس:

أولا: النية، وهي عزم القلب على امتثال أمر الله تعالى بأداء الصلاة كاملة، كما أمر بها الله مع الإخلاص له وحده، ومن يفعل ذلك في اليوم والليلة خمس مرات، فلا ريب في أن الإخلاص ينطبع في نفسه، ويصبح صفة من صفاته الفاضلة التي لها أجمل الأثر في حياة الأفراد والجماعات، فلا شيء أنفع في حياة المجتمع الإنساني من الإخلاص في القول والعمل، فلو أن الناس أخلصوا لبعضهم بعضاً في أقوالهم وأعمالهم، لعاشوا عيشة راضية مرضية، وصلحت حالهم في الدنيا والآخرة، وكانوا من الفائزين.

ثانيا: إن القيام بين يدي الله تعالى، فالمصلي يقف ببدنه وروحه بين يدي خالقه مطرقاً يناجيه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، يسمع منه ما يقول، ويعلم منه قلبه ما ينوي، ولا ريب في أن من يفعل ذلك مرات كثيرة في اليوم والليلة، فإن قلبه يتأثر بخالقه، فيأتمر بما أمره به، وينتهي عما نهاه عنه، فلا ينتهك للناس حرمة، ولا يعتدي لهم على نفس، ولا يظلمهم في مال، ولا يؤذيهم في دين أو عرض.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ١ صـ ١٦٢.

(٢)العنكبوت: ٤٥.

ثالثا: القراءة، ولكن ينبغي لمن يقرأ أن لا يحرك لسانه بالقراءة، وقلبه غافل، بل ينبغي له أن يتدبر معنى قراءته ليتعظ بما يقول، فإذا مر على لسانه ذكر الإله الخالق وجل قلبه خوفاً من عظمته وسطوته، كما قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا }[1] وإذا ذكرت صفات الله تعالى من رحمة وإحسان وجب عليه أن يعلم نفسه كيف تتخلق بتلك الصفات الكريمة، فإذا ما قرأ في صلاته الآيات التي تشتمل على صفات الإله الكريمة وعقل معناها، وكرّرها في اليوم والليلة مرات كثيرة. فإن نفسه تتأثر بها لا محالة ومتى تأثرت نفسه بجميل الصفات حبب إليه الاتصاف بها، ولذلك أحسن الأثر في تهذيب النفوس والأخلاق.

رابعا: الركوع والسجود، وهما من أمارات التعظيم لمالك الملوك، خالق السموات والأرض وما بينهما، فالمصلي الذي يركع بين يدي ربه لا يكفيه أن يحنى ظهره بالكيفية المخصوصة، بل لا بد أن يشعر قلبه بأنه عبد ذليل، ينحني أمام عظمة إله عزيز كبير، لا حد لقدرته، ولا نهاية لعظمته فإذا انطبع ذلك المعنى في قلب المصلي مرات كثيرة في اليوم والليلة كان قلبه دائماً خائفاً من ربه فلا يعمل إلا ما يرضيه، وكذلك المصلي الذي يسجد لخالقه، فيضع جبهته على الأرض معلناً عبوديته لخالقه. فإنه إذا استشعر قلبه ذل العبودية، وعظمة الرب الخالق فلا بد أن يخافه ويخشاه، وبذلك تتهذب نفسه وينتهي عن الفحشاء والمنكر[2].

وللصلاة آثارٌ تربوية، فهي تربي النفس على طاعة الخالق، وتعلِّم العبد آداب العبودية، وواجبات الربوبية، بما تغرسه في قلب صاحبها من قدرة الله وعظمته، وبطشه وشدته، ورحمته ومغفرته، كما تحليه وتجمله بمكارم الأخلاق لسموها بنفسه عن صفات الخسة والدناءة، فإذا فتَّشتَ عن آثار الصلاة فيه وجدته صادقاً أميناً متواضعاً عدلاً، ينأى عن الكذب والخيانة والطمع والغدر والكبر والظلم ، وعندما يتجه المصلون في أنحاء الدنيا إلى القبلة، يشعر المسلم بالتآلف والوحدة،

---

(١)الأنفال:٢.

(٢)الفقه على المذاهب الأربعة للشيخ عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري (المتوفى: ١٣٦٠هـ) جـ١ صـ ١٥٨ بتصرف.

ونبذ الفرقة، فكلُّ المسلمين عبيدٌ لله، إلههم واحد، وقبلتهم واحدة، ودينهم واحد، لا فرق بين غني وفقير، وعظيم وحقير، يتوخىٰ المسلم الاستقامة في استقبال بيت الله، فلا يحيد ولا يميل، وبذلك يتربىٰ علىٰ العدل في جميع أمور حياته، والحكمة بوضع كل شيء موضعه يعيش آلام إخوانه المسلمين جماعة المسجد وآمالهم، فيصبح عنصراً فعالاً في جماعته ومجتمعه، تعوِّده الصلاة علىٰ الدقة في الموعد، والحرص علىٰ الوقت. تنظم له أوقاته فيتعوَّد علىٰ النظام في جميع أموره، ويتبع الإمام، فيتدرَّب علىٰ الطاعة والالتزام[1].

ولعل السر في كثرة المصلين، وضعف أثر الصلاة في سلوكهم، هو أنهم لم يؤدوها إلا بهيئتها فقط، من قيام وركوع وسجود، ودعاء وتسبيح، وتكبير وتحميد، ولم يبلغوا درجة إقامتها تامة بحضور، وهكذا يتفاوت المصلون في الأجر والثواب وفي مدىٰ استقامتهم في تنفيذ منهج الله، مع أن الأعمال التي يؤدونها في الصلاة واحدة، مما يؤكد تفاوت المصلين في روح الصلاة ولبها، وبقدر حضور القلب تكون إقامتها، ويكون أثرها ومدىٰ انعكاسه علىٰ سلوك صاحبها[2].

ثانيا: الزكاة: وهي لغة من الزكاء، وهو النماء، والزيادة، سميت بذلك؛ لأنها تثمر المال وتنميه، يقال: زكا الزرع: إذا بورك فيه [3].

وشرعًا: إخراج جزء من مال مخصوص لقوم مخصوصين بشرائط مخصوصة[4].

والزكاة عبادة مالية اجتماعية مهمة ، وهي الفريضة الثانية في الإسلام، قرنت في القرآن الكريم بالصلاة في عشرات المواضع، تعظيماً لشأنها، وتنويهاً بذكرها، وترغيباً في أدائها، وترهيباً من

---

(١)دعائم التمكين للمملكة العربية السعودية علىٰ ضوء قوله تعالىٰ: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور}صـ٦٦.

(٢)الصلاة وصف مفصل للصلاة بمقدماتها مقرونة بالدليل من الكتاب والسنة، وبيان لأحكامها وآدابها وشروطها وسننها من التكبير حتىٰ التسليم للدكتور عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار صـ٣٣.

(٣)لسان العرب جـ٣ صـ١٨٤٩ ، وترتيب القاموس جـصـ٤٦٤"، والمصباح المنير جـ١ صـ٣٤٦.

(٤)الموسوعة الفقهية الكويتية جـ٤ صـ٢٦٩.

منعها، أو التساهل فيها، وتعدد ذكرها تارةً بلفظ الإنفاق، وتارةً بلفظ الزكاة، وثالثةً بلفظ الصدقة ، وهي أيضًا من ركائز الإسلام القوية، وأسسه الثابتة، وقواعده المترابطة، وترسخ العقيدة الصحيحة في نفس المسلم، وتغرس فيه حب العبادة والطاعة لله تعالى، وتنمي فيه روح الألفة والمحبة لإخوانه المسلمين.

والزكاة فريضة لازمة يُكفر من جحدها، ويفسق من منعها، ويقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها، يقول الله سبحانه: {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}(١)، وحسبنا أن الخليفة الراشد الأول سيدنا الصديق أبا بكر (رضي الله عنه) جهز جيشاً كبيراً لقتال المرتدين الذين امتنعوا عن إيتاء الزكاة ودفعها ، وقال كلمته المشهورة : (وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَوَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ)(٢) ، ومن ترك الزكاة فإنه يعاقب في الآخرة من جنس أمواله التي منعها، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٣) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : (تَأْتِي الإِبِلُ عَلَى صَاحِبِهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ، إِذَا هُوَ لَمْ يُعْطِ فِيهَا حَقَّهَا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَأْتِي الغَنَمُ عَلَى صَاحِبِهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ إِذَا لَمْ يُعْطِ فِيهَا حَقَّهَا، تَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا، وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا» ، وَقَالَ: «وَمِنْ حَقِّهَا أَنْ تُحْلَبَ عَلَى المَاءِ» قَالَ: " وَلاَ يَأْتِي أَحَدُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِشَاةٍ يَحْمِلُهَا عَلَى رَقَبَتِهِ لَهَا يُعَارٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُ، وَلاَ يَأْتِي بِبَعِيرٍ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ لَهُ رُغَاءٌ

---

(١)التوبة: ١١.

(٢)رواه البخاري في صحيحه كِتَابُ اسْتِتَابَةِ المُرْتَدِّينَ وَالمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ/ بَابُ قَتْلِ مَنْ أَبَى قَبُولَ الفَرَائِضِ، وَمَا نُسِبُوا إِلَى الرِّدَّةِ/ برقم ٦٩٢٥.

(٣)التوبة: ٣٤-٣٥.

فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْتُ)[1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ: (لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ...الآية)[2].

فلا يجوز للإنسان الذي وسع الله عليه وأغناه أن يمنع الصدقة ويبخل بالمال عمن يستحقه ويحتاجه ، ولا أن يمنعه عن الخير الذي أمر الله إنفاق المال فيه، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3]، وقال تعالى: { هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[4].

ولقد أوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة على عباده المؤمنين المستطيعين بشروط مخصوصة في أوقات مخصوصة بكيفيات مخصوصة ، فتؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فهي ليست في الإسلام نظام جباية ، بل لتحقيق مبدأ الكفاية ، وغرس مشاعر الحنان والرأفة وتوطيد العلاقات، وتحقيق الألفة بين شتى الطبقات.

---

(١)رواه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة/ بَابُ إِثْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ/ برقم ١٤٠٢. ومعنى: (تأتي الإبل) أي: التي كان يملكها في الدنيا يخلقها الله تعالى يوم القيامة، (على خير ما كانت) في الدنيا من القوة والسمن. (تطؤه) تدوسه وتعلوه، (بأخفافها) جمع خف وهو للإبل كالقدم من الإنسان. (بأظلافها) جمع ظلف وهو من الغنم كالخف من البعير، (أن تحلب على الماء) عند ورودها لتشرب ويعطى من لبنها من حضر من المساكين ومن ليس لديهم لبن. (بشاة) واحدة الغنم ذكرا أم أنثى. (يعار) هو صوت الغنم. (ورغاء) صوت الإبل.

(٢)رواه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة/ بَابُ إِثْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ/ برقم ١٤٠٣.

(٣)آل عمران: ١٨٠.

(٤)محمد: ٣٨.

وأما عن أثر الزكاة في تزكية النفس فإنها تزكي نفس الإنسان وتطهر قلبه من التعلق بالدنيا والمال، وتذكره بأنه عبدٌ لله الذي أعطاه المال، وليس عبدًا للمال، فيعلم أن المال مال الله، قال تعالى: { وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}(١)، وتنفي الشحَّ والبخل والحرص، وتحل مشكلة الفقر في المجتمعات، فتكون سببًا في ألفة المجتمع وتعاونه، وتعلِّم الإحسان إلى الآخرين ممن يحتاج إلى إحسان، وتطهر المال مما يدخله من الشبهات والحرام من غير قصد.

وكل ذلك من مظاهر التزكية التي تصنعها الزكاة والصدقة، قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾(٢).

ومن ثمَّ رغَّب الله في أداء الزكاة، وأثنى على المزكِّين والمتصدقين بالفَلاَح والنجاح في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}(٣)، ثمَّ وَعَدَهُم وِراثة الفِرْدَوس الأَعْلَى، فقال تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(٤).

ولم تعرف البشرية نظامًا دينيًّا أو وضعيًا اهتم بالزكاة والصدقة مثلما اهتم الإسلام، لما لها من آثار نفسية واجتماعية تعود بالخير، وتشيع الأمن وتطرد كل مظاهر البؤس، وترسم بسمة الرضا على كل فم في المجتمع، فتصفوا النفوس وتزكوا.

فالزكاة تزكي نفس المتصدق وتطهره من أمراض الشح والبخل، تطهرهم من طلب الأعواض عليها، وتزكيهم عن ملاحظتهم إياها، تطهرهم بها من شحّ نفوسهم، وتزكيهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم فيروا عظيم منّة الله عليهم بوجدان التجرّد منها(٥)، وتزكي نفس الفقير فتطهره من

---

(١)النور:٣٣.

(٢)التوبة: ١٠٣.

(٣)المؤمنون:١- ٤.

(٤)المؤمنون: ١٠- ١١.

(٥)لطائف الإشارات جـ٢/ صـ٦٠.

أمراض الحقد والحسد والبغضاء ، وتزكي نفس المجتمع بأسره فتطهره من أمراض العداوة والقسوة وتنشر قيم التراحم والتوادد والتكافل والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

ثالثًا: الصيام: لغة: يقصد به مطلقُ الإمساك، أي: التوقُّف عن كل فعل أو قول، فالصائم إنما سمِّي كذلك لإمساكه عن شهوتَي البطن والفرج، والمسافر إذا توقَّف عن سيره سُمِّي صائماً، والصامت عن الكلام صائم، ومنه قوله تعالى: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}[1] ، وكذا الفَرَس إذا أمسكَتْ عن العَلَف فهي صائم، وإذا قامت في موقفها، فهي في مَصامها، وصوم الماء ركودُه، وصوم الريح توقُّفُها، وصومُ الشمس استواؤها في كَبِد السماء قُبيل الزوال، عند انتصاف النهار[2].

وتكاد تتفق كلمة الفقهاء على تعريف الصوم بأنه الإمساك عن المفطِّر على وجه مخصوص من طلوع الفجر حتى آذان المغرب .

والصيام تشريع ربّاني حكيم عرفته الأمم السابقة من أهل الكتاب، كما دلَّ عليه ظاهر قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }[3]. ثم جاء الإسلام ليستقرَّ فيه تشريع الصيام على الوجه الأكمل، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يتدرج هذا التشريع في مراحل زمنية مختلفة ، كما هو الحال في كثير من التشريعات ، رحمة من الله بعباده وتلطُّفاً بهم وتيسيراً عليهم.

والصيام لا يعدِل أجرَه أجرُ شيء من عمل ابن آدم، ففيه استكنَّ واستقر سرُّ الإخلاص، فعلا أجرُه بذلك جميعَ الأعمال، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا

---

(١)مَريَم: ٢٦.

(٢)لسان العرب لابن منظور جـ ٤ صـ ٢٥٢٩مادة: (صوم) . والقاموس المحيط للفيروزآبادي ص: ١٤٦٠، باب الميم، فصل الصاد ، مادة صام .

(٣) البَقَرَة: ١٨٣.

الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ)[1].

وأما عن آثار الصوم في تزكية النفس فهي كثيرة لا تعد ولا تحصى، فالنفس المطمئنة تزداد إيمانًا وتتزكى بهذا الصوم، والنفس الأمَّارة بالسوء تَنضبِط في هذا الشهر، وتتربَّى على الصبر وتترك ما حرم الله سبحانه وتعالى ، من هذه الآثار:

• يربي في نفس صاحبه الصبرويعوِّدها على تحمُّل المشاقِّ في سبيل الله -عزَّ وجلَّ-، فهو يجمع أنواع الصَّبر الثَّلاثة: الصَّبر على المأمور، والصَّبر عن المحظور، والصَّبر على المقدور، ومن استكمل هذه الانواع فقد استكمل حقيقة الصَّبر، وبلغ ذروته؛ فيكون صبراً على المأمور؛ لأنَّ الصَّائم يحبس نفسه على امتثال أمر الله له بالصَّوم؛ وعن المحظور؛ لأنَّ الصَّائم يجتنب ما حُرِّم عليه؛ وصبراً على المقدور؛ لأنَّ الصَّائم يحبس نفسه على الرِّضى بما قدَّر عليه من ألم الجوع والعطش.

• ومنها: أنَّه يعوِّد النَّفس على امتثال أوامر الله -عزَّ وجلَّ- وإخلاص العمل له، ورجاء ثوابه

• يعلمه العفة وصيانة النفس عن الحرام.

• يعوده على ضبط اللسان ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ) [2]، فالرَّفَثُ ها هُنا الفُحش والخنا، والجهل هو السَّفه، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[3].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الصيام/ بَابُ فَضْلِ الصِّيَامِ/ برقم١١٥١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصيام/ بَابٌ: فَضْلِ الصَّوْمِ/ برقم١٨٩٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصيام/ بَابٌ: مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالعَمَلَ بِهِ فِي الصَّوْمِ/ برقم١٩٠٣.

• ويربِّي النَّفس على التخلق بحسن الاخلاق والتي منها الحلم والأناة، وتحمُّل إيذاء الغير، ويعوِّدها على كظم الغيظ وسكون الغضب، فيحفظ الصَّائم نفسه من أن تمضي ما هي قادرةٌ على إمضائه، باستمكانها ممَّن غاظها، وانتصارها ممَّن ظلمها ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رِوَايَةً، قَالَ: (إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ)[1].

• معينٌ على غض البصر، وحافظٌ من فوران شهوة الفرج، وإطفاء نار شهوتها وتضييق مسالك الشَّياطين من وساوسها ، وتزكية الإنسان من هذه الشهوة من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه المسلم، وخاصة في زماننا الذي كثرت فيه الشهوات والمثيرات، فكانت أكثر الذنوب اليوم من هذا الباب، لذلك كان الإكثار من الصيام محموداً مرغوباً عند الطالبين للتزكية، ولهذا حثَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الشَّباب الَّذين تعذَّر عليهم الزَّواج، وخشوا على أنفسهم من الفتنة أن يصوموا فقال: (مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ)[2] ، قال العلامة ابن القيم رحمه الله معلقًا على الحديث: فأرشدهم إلى الدواء الشافي الذي وضع لهذا الأمر ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجاري الشهوة فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان في توليدها والصوم يضيق عليها ذلك فيصير بمنزلة وجاء الفحل وقل من أدمن الصوم إلا وماتت شهوته أو ضعفت جدا والصوم المشروع يعدلها واعتدالها حسنة بين سيئتين ووسط بين طرفين مذمومين وهما العنة والغلمة الشديدة المفرطة وكلاهما خارج عن الاعتدال وكلا طرفي قصد الأمور ذميم وخير الأمور أوساطها[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصيام/ بَابٌ: حِفْظِ اللِّسَانِ لِلصَّائِمِ/ برقم١١٥١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصيام/ بَابٌ: الصَّوْمُ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ العُزْبَةَ/ برقم١٩٠٥.

(٣)روضة المحبين ونزهة المشتاقين للعلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) صـ٢٣٠.

• ويُطَهِّر النَّفس من الشُّحِّ والبُخل، ويربِّيها على الجود والكرم، لأنَّه موسم الخيرات وزمانها، وفيه تتضاعف الحسنات وتزيد، وليكون الجود والكرم عونًا للصَّائمين من الفقراء على صومهم، وليُفطِّرَهم، فيحصل له مثل أجورهم، وهذا هو حال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»[1].

وغير ذلك من الآثار الجليلة للصوم في تزكية النفس ، فكانت الدعوة المحمدية إليه بأنه لا مثيل له بين العبادات ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: مُرْنِي بِأَمْرٍ آخُذُهُ عَنْكَ، قَالَ: (عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ)[2].

رابعًا: الحج: وهو أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو عبادة روحية اجتماعية، بدنية مالية، **وهو لغة** : القصد ولهذا سمّي الطريق محجّة ، لأنّه يوصل إلى المقصود. وقال الخليل[3]. : الحجّ : كثرة القصد إلى من تعظّمه، وسمّي الحجّ حجّا ، لأنّ الحاجّ يأتي قبل الوقوف بعرفة إلى البيت ثم يعود إليه لطواف الزيارة ثم ينصرف إلى منى ثم يعود إليه لطواف الوداع ، وفيه لغتان : بفتح الحاء وكسرها[4].

---

(١)رواه البخاري في صحيحه كتاب الصيام/ بَابٌ: أَجْوَدُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ فِي رَمَضَانَ/ برقم١٩٠٢.

(٢)رواه النسائي في سننه ذِكْرُ الِاخْتِلَافِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ، فِي فَضْلِ الصَّائِمِ/ برقم٢٢٢٠ ، وأحمد في المسند برقم ٢٢١٩٦ ، وابن حبان في صحيحه كتاب الصوم/ ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ الصَّوْمَ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ مِنَ الطَّاعَاتِ/ برقم٣٤٢٥ .

(٣)هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، أبو عبد الرحمن، من أئمة اللغة والأدب، توفي سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل: سنة سبعين ومائة . انظر: "إنباه الرواة": جـ١ صـ٣٤١، وتهذيب التهذيب جـ٣ صـ١٦٣.

(٤)ينظر: الصحاح جـ ١ صـ٣٠٣ ، والقاموس المحيط جـ ١ صـ ١٨٢، والعين جـ ٣صـ ٩.

وفي اصطلاح علماء الشريعة هو: القصد إلى مواضع مخصوصة لأداء مناسك مخصوصة عندها متعلّقة بزمان مخصوص ليدخل الوقوف بعرفة والمشعر ومنى [1].

وهو فرض على المسلم المستطيع ماليًا وبدنيًا ، قال تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا} [2] ، ولم يُفرض في العمر كله إلا مرة واحدة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا) ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ) ، ثُمَّ قَالَ: (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ) [3]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (....الْحَجُّ مَرَّةٌ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ)[4].

ولقد اختار الله عز وجل أشرف البقاع وأطهرها لتكون مكانًا لأداء فريضة العمر ، فريضة الحج ، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اخْتَارَهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَعَلَهُ مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِتْيَانَ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، فَلَا يَدْخُلُونَهُ إِلَّا مُتَوَاضِعِينَ مُتَخَشِّعِينَ مُتَذَلِّلِينَ كَاشِفِي رُءُوسِهِمْ مُتَجَرِّدِينَ عَنْ لِبَاسِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَجَعَلَهُ حَرَمًا آمِنًا لَا يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ، وَلَا تُعْضَدُ بِهِ شَجَرَةٌ، وَلَا يُنَفَّرُ لَهُ صَيْدٌ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ لِلتَّمْلِيكِ بَلْ لِلتَّعْرِيفِ لَيْسَ إِلَّا، وَجَعَلَ قَصْدَهُ مُكَفِّرًا لِمَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ، مَاحِيًا لِلْأَوْزَارِ، حَاطًّا لِلْخَطَايَا،

---

(١)ينظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب لشيخ الإسلام زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: ٩٢٦هـ) جـ ١ صـ٤٤٣، ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للإمام شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ) جـ ٢صـ ٣٠٥.

(٢) آل عمران: ٩٧.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج/ بَابُ فَرْضِ الْحَجِّ مَرَّةً فِي الْعُمُرِ / برقم١٣٣٧.

(٤) رواه أبو داوود في سننه كتاب الحج/ بَابُ فَرْضِ الْحَجِّ/ برقم ١٧٢١ ، وأحمد في المسند/ برقم ٢٣٠٤ ،

كَمَا فِي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) ، وَلَمْ يَرْضَ لِقَاصِدِهِ مِنَ الثَّوَابِ دُونَ الْجَنَّةِ، فَفِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ) . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ) ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْبَلَدُ الْأَمِينُ خَيْرَ بِلَادِهِ، وَأَحَبَّهَا إِلَيْهِ، وَمُخْتَارَهُ مِنَ الْبِلَادِ؛ لَمَا جَعَلَ عَرَصَاتِهَا مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قَصْدَهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ آكَدِ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ، وَأَقْسَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْهُ فَقَالَ تَعَالَى: {وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}(1) ، وَقَالَ تَعَالَى: { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}(2) ، وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بُقْعَةٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ قَادِرٍ السَّعْيُ إِلَيْهَا وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ الَّذِي فِيهَا غَيْرَهَا، وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَوْضِعٌ يُشْرَعُ تَقْبِيلُهُ وَاسْتِلَامُهُ، وَتُحَطُّ الْخَطَايَا وَالْأَوْزَارُ فِيهِ غَيْرَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ. وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ، فَفِي " سُنَنِ النَّسَائِيِّ " وَ" الْمُسْنَدِ " بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عبد الله بن الزبير، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِائَةِ صَلَاةٍ) وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي " صَحِيحِهِ " وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَفْضَلُ بِقَاعِ الْأَرْضِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلِذَلِكَ كَانَ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَيْهِ فَرْضًا، وَلِغَيْرِهِ مِمَّا يُسْتَحَبُّ وَلَا يَجِبُ، وَفِي " الْمُسْنَدِ " وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنْ عبد الله بن عدي بن الحمراء، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِالْحَزْوَرَةِ مِنْ مَكَّةَ يَقُولُ: (وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. بَلْ وَمِنْ خَصَائِصِهَا كَوْنُهَا قِبْلَةً لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ، فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قِبْلَةٌ غَيْرُهَا .

---

(1)التين: ٣.

(2)الْبَلَدِ: ١.

وَمِنْ خَوَاصِّهَا أَيْضًا أَنَّهُ يَحْرُمُ اسْتِقْبَالُهَا وَاسْتِدْبَارُهَا عِنْدَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ دُونَ سَائِرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، وَأَصَحُّ الْمَذَاهِبِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْفَضَاءِ وَالْبُنْيَانِ لِبِضْعَةَ عَشَرَ دَلِيلًا قَدْ ذُكِرَتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَلَيْسَ مَعَ الْمُفَرِّقِ مَا يُقَاوِمُهَا الْبَتَّةَ مَعَ تَنَاقُضِهِمْ فِي مِقْدَارِ الْفَضَاءِ وَالْبُنْيَانِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِيفَاءِ الْحِجَاجِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ.

وَمِنْ خَوَاصِّهَا أَيْضًا أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ، كَمَا فِي " الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ أَبِي ذر قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ؟ فَقَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ أَرْبَعُونَ عَامًا) وَقَدْ أَشْكَلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْمُرَادَ بِهِ فَقَالَ: مَعْلُومٌ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ هُوَ الَّذِي بَنَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ عَامٍ، وَهَذَا مِنْ جَهْلِ هَذَا الْقَائِلِ، فَإِنَّ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى تَجْدِيدُهُ لَا تَأْسِيسُهُ، وَالَّذِي أَسَّسَهُ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا وَسَلَّمَ بَعْدَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْكَعْبَةَ بِهَذَا الْمِقْدَارِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهَا أُمُّ الْقُرَى، فَالْقُرَى كُلُّهَا تَبَعٌ لَهَا وَفَرْعٌ عَلَيْهَا، وَهِيَ أَصْلُ الْقُرَى، فَيَجِبُ أَلَّا يَكُونَ لَهَا فِي الْقُرَى عَدِيلٌ، فَهِيَ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ (الْفَاتِحَةِ) أَنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ عَدِيلٌ.

وَمِنْ خَصَائِصِهَا أَنَّهَا لَا يَجُوزُ دُخُولُهَا لِغَيْرِ أَصْحَابِ الْحَوَائِجِ الْمُتَكَرِّرَةِ إِلَّا بِإِحْرَامٍ، وَهَذِهِ خَاصِّيَّةٌ لَا يُشَارِكُهَا فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْبِلَادِ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَلَقَّاهَا النَّاسُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ مَرْفُوعًا (لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مَكَّةَ إِلَّا بِإِحْرَامٍ، مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا) ذَكَرَهُ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيٍّ، وَلَكِنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ أَرْطَاةَ فِي الطَّرِيقِ، وَآخَرَ قَبْلَهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ.

وَلِلْفُقَهَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: النَّفْيُ، وَالْإِثْبَاتُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ هُوَ دَاخِلُ الْمَوَاقِيتِ وَمَنْ هُوَ قَبْلَهَا، فَمَنْ قَبْلَهَا لَا يُجَاوِزُهَا إِلَّا بِإِحْرَامٍ، وَمَنْ هُوَ دَاخِلُهَا فَحُكْمُهُ حُكْمُ أَهْلِ مَكَّةَ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حنيفة، وَالْقَوْلَانِ الْأَوَّلَانِ لِلشَّافِعِيِّ وأحمد.

وَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ يُعَاقَبُ فِيهِ عَلَى الْهَمِّ بِالسَّيِّئَاتِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا، قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}(١) فَتَأَمَّلْ كَيْفَ عَدَّى فِعْلَ الْإِرَادَةِ هَاهُنَا بِالْبَاءِ، وَلَا يُقَالُ: أَرَدْتُ بِكَذَا إِلَّا لِمَا ضُمِّنَ مَعْنَى فِعْلِ " هَمَّ " فَإِنَّهُ يُقَالُ: هَمَمْتُ بِكَذَا، فَتَوَعَّدَ مَنْ هَمَّ بِأَنْ يَظْلِمَ فِيهِ بِأَنْ يُذِيقَهُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ.

وَمِنْ هَذَا تَضَاعُفُ مَقَادِيرِ السَّيِّئَاتِ فِيهِ لَا كَمِّيَّاتِهَا، فَإِنَّ السَّيِّئَةَ جَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ، لَكِنْ سَيِّئَةٌ كَبِيرَةٌ جَزَاؤُهَا مِثْلُهَا، وَصَغِيرَةٌ جَزَاؤُهَا مِثْلُهَا، فَالسَّيِّئَةُ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَبَلَدِهِ وَعَلَى بِسَاطِهِ آكَدُ وَأَعْظَمُ مِنْهَا فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ، وَلِهَذَا لَيْسَ مَنْ عَصَى الْمَلِكَ عَلَى بِسَاطِ مُلْكِهِ كَمَنْ عَصَاهُ فِي الْمَوْضِعِ الْبَعِيدِ مِنْ دَارِهِ وَبِسَاطِهِ، فَهَذَا فَصْلُ النِّزَاعِ فِي تَضْعِيفِ السَّيِّئَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ظَهَرَ سِرُّ هَذَا التَّفْضِيلِ وَالِاخْتِصَاصِ فِي انْجِذَابِ الْأَفْئِدَةِ وَهَوَى الْقُلُوبِ وَانْعِطَافِهَا وَمَحَبَّتِهَا لِهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ، فَجَذْبُهُ لِلْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ جَذْبِ الْمَغْنَاطِيسِ لِلْحَدِيدِ، فَهُوَ الْأَوْلَى بِقَوْلِ الْقَائِلِ:

مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ *** وَمِغْنَاطِيسُ أَفْئِدَةِ الرِّجَالِ

وَلِهَذَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَثَابَةٌ لِلنَّاسِ، أَيْ: يَثُوبُونَ إِلَيْهِ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَعْوَامِ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْطَارِ، وَلَا يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا، بَلْ كُلَّمَا ازْدَادُوا لَهُ زِيَارَةً ازْدَادُوا لَهُ اشْتِيَاقًا.

لَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهَا حِينَ يَنْظُرُهَا *** حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقًا

فَلِلَّهِ كَمْ لَهَا مِنْ قَتِيلٍ وَسَلِيبٍ وَجَرِيحٍ، وَكَمْ أُنْفِقَ فِي حُبِّهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْوَاحِ، وَرَضِيَ الْمُحِبُّ بِمُفَارَقَةِ فِلَذِ الْأَكْبَادِ، وَالْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَوْطَانِ، مُقَدِّمًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْوَاعَ الْمَخَاوِفِ وَالْمَتَالِفِ وَالْمَعَاطِفِ وَالْمَشَاقِّ، وَهُوَ يَسْتَلِذُّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَسْتَطِيبُهُ وَيَرَاهُ -لَوْ ظَهَرَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ فِي قَلْبِهِ- أَطْيَبَ مِنْ نِعَمِ الْمُتَحَلِّيَةِ وَتَرَفِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ.

وَلَيْسَ مُحِبًّا مَنْ يَعُدُّ شَقَاءَهُ ... عَذَابًا إِذَا مَا كَانَ يَرْضَى حَبِيبُهُ

---

(١)الحج: ٢٥.

وَهَذَا كُلُّهُ سِرُّ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ}[1] فَاقْتَضَتْ هَذِهِ الْإِضَافَةُ الْخَاصَّةُ مِنْ هَذَا الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْمَحَبَّةِ مَا اقْتَضَتْهُ، كَمَا اقْتَضَتْ إِضَافَتُهُ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ إِلَىٰ نَفْسِهِ مَا اقْتَضَتْهُ مِنْ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ إِضَافَتُهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ كَسَتْهُمْ مِنَ الْجَلَالِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْوَقَارِ مَا كَسَتْهُمْ، فَكُلُّ مَا أَضَافَهُ الرَّبُّ تَعَالَىٰ إِلَىٰ نَفْسِهِ فَلَهُ مِنَ الْمَزِيَّةِ وَالِاخْتِصَاصِ عَلَىٰ غَيْرِهِ مَا أَوْجَبَ لَهُ الِاصْطِفَاءَ وَالِاجْتِبَاءَ، ثُمَّ يَكْسُوهُ بِهَذِهِ الْإِضَافَةِ تَفْضِيلًا آخَرَ، وَتَخْصِيصًا وَجَلَالَةً زَائِدًا عَلَىٰ مَا كَانَ لَهُ قَبْلَ الْإِضَافَةِ، وَلَمْ يُوَفَّقْ لِفَهْمِ هَذَا الْمَعْنَىٰ مَنْ سَوَّىٰ بَيْنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَمَاكِنِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا مَزِيَّةَ لِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَىٰ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ التَّرْجِيحِ بِلَا مُرَجِّحٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ بِأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ وَجْهًا قَدْ ذُكِرَتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَيَكْفِي تَصَوُّرُ هَذَا الْمَذْهَبِ الْبَاطِلِ فِي فَسَادِهِ، فَإِنَّ مَذْهَبَنَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ ذَوَاتُ الرُّسُلِ كَذَوَاتِ أَعْدَائِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ بِأَمْرٍ لَا يَرْجِعُ إِلَىٰ اخْتِصَاصِ الذَّوَاتِ بِصِفَاتٍ وَمَزَايَا لَا تَكُونُ لِغَيْرِهَا، وَكَذَلِكَ نَفْسُ الْبِقَاعِ وَاحِدَةٌ بِالذَّاتِ لَيْسَ لِبُقْعَةٍ عَلَىٰ بُقْعَةٍ مَزِيَّةٌ الْبَتَّةَ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَلَا مَزِيَّةَ لِبُقْعَةِ الْبَيْتِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمِنًىٰ، وَعَرَفَةَ، وَالْمَشَاعِرِ عَلَىٰ أَيِّ بُقْعَةٍ سَمَّيْتَهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ بِاعْتِبَارِ أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ الْبُقْعَةِ لَا يَعُودُ إِلَيْهَا وَلَا إِلَىٰ وَصْفٍ قَائِمٍ بِهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَدْ رَدَّ هَذَا الْقَوْلَ الْبَاطِلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}[2]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[3] أَيْ: لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهْلًا وَلَا صَالِحًا لِتَحَمُّلِ رِسَالَتِهِ، بَلْ لَهَا مَحَالُّ مَخْصُوصَةٌ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِهَا، وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْمَحَالِّ مِنْكُمْ. وَلَوْ كَانَتِ الذَّوَاتُ مُتَسَاوِيَةً كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}[4] أَيْ: هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يَشْكُرُهُ عَلَىٰ نِعْمَتِهِ،

---

(١) الحج: ٢٦.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

(٣) الأنعام: ١٢٤.

(٤) الْأَنْعَامِ: ٥٣.

فَيَخْتَصُّهُ بِفَضْلِهِ وَيَمُنُّ عَلَيْهِ مِمَّنْ لَا يَشْكُرُهُ، فَلَيْسَ كُلُّ مَحَلٍّ يَصْلُحُ لِشُكْرِهِ، وَاحْتِمَالِ مِنَّتِهِ، وَالتَّخْصِيصِ بِكَرَامَتِهِ.

فَذَوَاتُ مَا اخْتَارَهُ وَاصْطَفَاهُ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَمَاكِنِ وَالْأَشْخَاصِ وَغَيْرِهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى صِفَاتٍ وَأُمُورٍ قَائِمَةٍ بِهَا لَيْسَتْ لِغَيْرِهَا، وَلِأَجْلِهَا اصْطَفَاهَا اللهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي فَضَّلَهَا بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، وَخَصَّهَا بِالِاخْتِيَارِ، فَهَذَا خَلْقُهُ، وَهَذَا اخْتِيَارُهُ {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [القصص: ٦٨] (١)، وَمَا أَبْيَنَ بُطْلَانِ رَأْيٍ يَقْضِي بِأَنَّ مَكَانَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مُسَاوٍ لِسَائِرِ الْأَمْكِنَةِ، وَذَاتَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مُسَاوِيَةٌ لِسَائِرِ حِجَارَةِ الْأَرْضِ، وَذَاتَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسَاوِيَةٌ لِذَاتِ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ فِي ذَلِكَ بِأُمُورٍ خَارِجَةٍ عَنِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ الْقَائِمَةِ بِهَا(٢). أ هـ.

والحج مِن العبادات العظيمة التي جعلَها الله طهارةً، وتربيةً، وغُفرانًا لذنوب عباده ، ويتحقق بها تزكية النفس وذلك لأنه العبادة الوحيدة التي اجتمع التقرب فيها إلى الله عز وجل بالقلب والمال والبدن ، وتتجلى بعض الآثار السلوكية في الحج من خلال النقاط التالية:

١. الحج فيه معنى كمال الامتثال لله تبارك وتعالى ، وسرعة الاستجابة لأداء ما أمر الله عز وجل به ، وتمام الإخلاص مع التجرد المحض لأمر الله تبارك وتعالى ، قال تعالى: { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ }(٣)،أي: ائتوا بهما تامّين كاملين بمناسكهما وشرائطهما لوجه اللهَّ من غير توان ولا نقصان

(١)الْقَصَصِ: ٦٧.

(٢)زاد المعاد جـ١ صـ ٤٧.

(٣)البقرة: ١٩٦.

يقع منكم فيها[1]، وقيل: إتمامها أن تحرم بها من دويرة أهلك، ولتكن حاضر القلب، مشاهد القرب عند المواطن المرجوّ فيها الإجابة، وفي المشاهد المبتغي منها المنفعة[2].

وتتجلى آثار كمال الامتثال وسرعة الاستجابة في التلبية بمبناها ومعناها ، فيقول: لبيك اللَّهُمَّ لبيك لبيك لَا شريك لَك لبيك إِن الْحَمد وَالنعْمَة لَك وَالْملك لَا شريك لَك لبيك وَسَعْديك وَالْخَيْر بيديك لبيك وَالرغْبَاء إِلَيْك وَالْعَمَل لبيك ، ومعنى قَوْله: (لبيك اللَّهُمَّ) ، يَعْني: يَا الله أجبناك فِيمَا دَعوتنَا[3]،الْحِكْمَة فِي مَشْرُوعِيَّة التَّلْبِيَة هِيَ التَّنْبِيه على إكرام الله تَعَالَى لِعِبَادِهِ، بِأَن وفودهم على بَيته إِنَّمَا كَانَ باستدعاء مِنْهُ، عز وَجل، فَإِن قلت: لِمَ قرن الْحَمد بِالنعْمَةِ وأفرد الْملك؟ قلت: لِأَن الْحَمد مُتَعَلق بِالنعْمَةِ، وَلِهَذَا يُقَال: الْحَمد لله على نعمه، فَجمع بَينهمَا كَأَنَّهُ قَالَ: لَا حمد، إِلاَّ لَك، لِأَنَّهُ لَا نعْمَة إِلاَّ لَك وَأما الْملك، فَهُوَ معنى مُسْتَقل بِنَفسِهِ، ذكر لتحقيق: أَن النِّعْمَة كلهَا لله لِأَنَّهُ صَاحب الْملك[4].

وهذه التلبية هي نتيجة دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، ذكر المفسرون لقوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}[5] لَمَّا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمُ اتَّخَذَ بَيْتًا وَأَمَرَكُمْ أَنْ تَحُجُّوهُ فَاسْتَجَابَ لَهُ مَا سَمِعَهُ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ أَكَمَةٍ أَوْ

---

(١)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للإمام أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) جـ١ صـ٢٣٨.

(٢)قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد للإمام محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ) جـ١ صـ١٩٧.

(٣)عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام أبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ) جـ٩ صـ١٧٣.

(٤)عمدة القاري شرح صحيح البخاري جـ٩ صـ١٧٣.

(٥)الحج: ٢٧.

تُرَابٍ أَوْ شَيْءٍ، فَقَالُوا: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، فَمَنْ أَجَابَ يَوْمَئِذٍ حَجَّ عَلَى قَدْرِ الْإِجَابَةِ، إِنْ أَجَابَ مَرَّةً فَمَرَّةً، وَإِنْ أَجَابَ مَرَّتَيْنِ فَمَرَّتَيْنِ، وَجَرَتِ التَّلْبِيَةُ عَلَى ذَلِكَ[1].

فالتلبية بصيغها المختلفة المشروعة تدل على كمال الانقياد مع تمام الإخلاص لله عز وجل.

كذلك من مظاهر كمال الانقياد تقبيل الحجر الأسود ، فهناك في المناسك حجر يقبل وهو الحجر الأسود ، وحجر يرجم ، وحجر يجمع من مكان معين ليلقى في مكان معين ، وكل هذه الأمور تدل على الخروج من الحول والقوة إلى الاستسلام لأمر الله عز وجل ، عَن عابس بن رَبيعة، قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه يُقَبِّلُ الحَجَرَ يَعْنِي: الأَسْوَدَ وَيَقُولُ: إني أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ وَلاَ تَضُرُّ، وَلَولا أَنِّي رَأَيْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ[2] ، قال ابن حجر[3] في الفتح : وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها

---

(١)جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) جـ١٦ صـ ٥١٥، وتفسير القرآن العظيم لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ) جـ٨ صـ٢٤٨٧، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للإمام محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ) جـ ٣صـ٣٣٤ ، والجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ) جـ١٣ صـ٣٨ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٥ صـ ٣٦٤.

(٢)رواه البخاري في صحيحه كتاب الحج / بَابُ مَا ذُكِرَ فِي الحَجَرِ الأَسْوَدِ/ برقم١٥٩٧.

(٣)أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر: من أئمة العلم والتاريخ ، أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة ، ولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل ، قال السخاويّ: انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر ، توفي عام٨٥٢ هـ ينظر: الضوء اللامع جـ ٢ صـ ٣٦ ، والبدر الطالع جـ ١ صـ ٨٧ ، وبدائع الزهور جـ ٢ صـ ٣٢ وفيه وفاته سنة ٨٥٤ هـ

وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه وفيه دفع ما وقع لبعض الجهال من أن في الحجر الأسود خاصة ترجع إلى ذاته[1].

ولا تحصل الاستجابة إلا من قلب تقي عامر بالإيمان ، ونفس زكية.

كذلك من آثار الحج في تزكية النفس استحضار ذكرى الصالحين كنبي الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وكذلك هاجر ، فتتكون في النفس مادة من الغذاء الروحي تعينه على التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه ومباشرة الأسباب وعدم تعطيلها ، وفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمَنَاسِكِ تَذْكِرَةٌ لِلْمُتَذَكِّرِ وَعِبْرَةٌ لِلْمُعْتَبِرِ إِذَا انْفَتَحَ بَابُهَا انْكَشَفَ لِكُلِّ خَارِجٍ مِنْ أَسْرَارِهَا مَا يَقْتَضِيهِ صَفَاءُ قَلْبِهِ وَغَزَارَةُ فَهْمِهِ، وَقَدْ شَرَّفَ اللهُ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهِ، وَنَصَبَهُ مَقْصِدًا لِعِبَادِهِ، وَجَعَلَ مَا حَوَالَيْهِ حَرَمًا لِبَيْتِهِ تَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ، وَأَكَّدَ حُرْمَةَ الْمَوْضِعِ بِتَحْرِيمِ صَيْدِهِ وَشَجَرِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَى مِثَالِ حَضْرَةِ الْمُلُوكِ يَقْصِدُهُ الزُّوَّارُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ وَمِنْ كُلِّ أَوْبٍ سَحِيقٍ شُعْثًا غُبْرًا مُتَوَاضِعِينَ لِرَبِّ الْبَيْتِ خُضُوعًا لِجَلَالِهِ، مَعَ الِاعْتِرَافِ بِتَنْزِيهِهِ عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ بَيْتٌ أَوْ يَكْتَنِفَهُ بَلَدٌ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي رِقِّهِمْ وَعُبُودِيَّتِهِمْ وَأَتَمَّ فِي إِذْعَانِهِمْ وَانْقِيَادِهِمْ.

وَفِي الْإِحْرَامِ وَالتَّلْبِيَةِ إِجَابَةُ نِدَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي دُخُولِ مَكَّةَ تَذَكُّرُ الِانْتِهَاءِ إِلَى حَرَمِ اللهِ، فَلْيَخْشَ أَنْ لَا يَكُونَ أَهْلًا لِلْقُرْبِ وَلْيَرْجُ الرَّحْمَةَ.

وَفِي مُشَاهَدَةِ الْبَيْتِ إِحْضَارُ عَظَمَةِ الْبَيْتِ فِي الْقَلْبِ وَتَقْدِيرُ مُشَاهَدَتِهِ لِرَبِّ الْبَيْتِ لِشِدَّةِ تَعْظِيمِهِ إِيَّاهُ، وَفِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ تَشَبُّهٌ بِالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الْحَافِّينَ حَوْلَ الْعَرْشِ الطَّائِفِينَ حَوْلَهُ، وَمَا الْقَصْدُ طَوَافُ الْجِسْمِ بَلْ طَوَافُ الْقَلْبِ بِذِكْرِ الرَّبِّ، وَفِي التَّعَلُّقِ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَالِالْتِصَاقِ بِالْمُلْتَزَمِ طَلَبُ الْقُرْبِ حُبًّا وَشَوْقًا لِلْبَيْتِ وَلِرَبِّ الْبَيْتِ وَتَبَرُّكًا بِالْمُمَارَسَةِ وَالْإِلْحَاحِ فِي طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ وَسُؤَالِ الْأَمَانِ كَالْمُذْنِبِ الْمُتَعَلِّقِ بِثِيَابِ مَنْ أَذْنَبَ إِلَيْهِ الْمُتَضَرِّعِ إِلَيْهِ فِي عَفْوِهِ عَنْهُ الْمُظْهِرِ لَهُ أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَهُ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يُفَارِقُ ذَيْلَهُ إِلَّا بِالْعَفْوِ عَنْهُ.

---

(١)فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر جـ ٣ صـ٤٦٣ .

وَفِي السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مُضَاهَاةُ تَرَدُّدِ الْعَبْدِ بِفِنَاءِ الْمَلِكِ جَائِيًا وَذَاهِبًا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ إِظْهَارًا لِلْخُلُوصِ فِي الْخِدْمَةِ وَرَجَاءً لِلْمُلَاحَظَةِ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ كَالَّذِي دَخَلَ عَلَىٰ الْمَلِكِ وَخَرَجَ وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا الَّذِي يَقْضِي بِهِ الْمَلِكُ فِي حَقِّهِ مِنْ قَبُولٍ أَوْ رَدٍّ، فَلَا يَزَالُ يَتَرَدَّدُ عَلَىٰ فِنَاءِ الدَّارِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ يَرْجُو أَنْ يُرْحَمَ فِي الثَّانِيَةِ إِنْ لَمْ يُرْحَمْ فِي الْأُولَىٰ.

وَفِي الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَرُؤْيَةِ ازْدِحَامِ الْخَلْقِ وَارْتِفَاعِ الْأَصْوَاتِ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ تَذَكُّرُ اجْتِمَاعِ الْأُمَمِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، وَتَحَيُّرِهِمْ فِي ذَلِكَ الصَّعِيدِ الْوَاحِدِ بَيْنَ الرَّدِّ وَالْقَبُولِ، وَفِي تَذَكُّرِ ذَلِكَ إِلْزَامُ الْقَلْبِ الضَّرَاعَةَ وَالِابْتِهَالَ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجَاءُ الْحَشْرِ فِي زُمْرَةِ الْفَائِزِينَ الْمَرْحُومِينَ وَتَحْقِيقُ الرَّجَاءِ بِالْإِجَابَةِ فَالْمَوْقِفُ شَرِيفٌ، وَالرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَصِلُ مِنْ حَضْرَةِ الْجَلَالِ إِلَىٰ كَافَّةِ الْخَلْقِ بِوَاسِطَةِ الْقُلُوبِ النَّقِيَّةِ، وَلَا يَنْفَكُّ الْمَوْقِفُ عَنْ طَبَقَاتٍ مِنَ الصَّالِحِينَ وَأَرْبَابِ الْقُلُوبِ، فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هِمَمُهُمْ وَتَجَرَّدَتْ لِلضَّرَاعَةِ وَالِابْتِهَالِ قُلُوبُهُمْ وَارْتَفَعَتْ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَيْدِيهِمْ وَامْتَدَّتْ إِلَيْهِ أَعْنَاقُهُمْ وَشَخَصَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ أَبْصَارُهُمْ مُجْتَمِعِينَ بِهِمَّةٍ وَاحِدَةٍ عَلَىٰ طَلَبِ الرَّحْمَةِ فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّهُ يُخَيِّبُ أَمَلَهُمْ وَيُضَيِّعُ سَعْيَهُمْ وَيَدَّخِرُ عَنْهُمْ رَحْمَةً تَغْمُرُهُمْ.

وَفِي رَمْيِ الْجِمَارِ انْقِيَادٌ لِلْأَمْرِ إِظْهَارًا لِلرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ وَقَصْدُ رَمْيِ وَجْهِ الشَّيْطَانِ وَقَصْمُ ظَهْرِهِ، وَفِي زِيَارَةِ الْمَدِينَةِ وَمُشَاهَدَتِهَا تَذَكُّرُ أَنَّهَا الْبَلْدَةُ الَّتِي اخْتَارَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَ إِلَيْهَا هِجْرَتَهُ، وَأَنَّهَا دَارُهُ الَّتِي شَرَعَ فِيهَا فَرَائِضَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسُنَنَهُ وَجَاهَدَ عَدُوَّهُ وَأَظْهَرَ بِهَا دِينَهُ إِلَىٰ أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهَا الْعَرْصَةُ الَّتِي اخْتَارَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ وَلِأَوَّلِ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْضَلِهِمْ عِصَابَةً، وَأَنَّ فَرَائِضَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَوَّلُ مَا أُقِيمَتْ فِي تِلْكَ الْعَرْصَةِ وَأَنَّهَا جَمَعَتْ أَفْضَلَ خَلْقِ اللَّهِ حَيًّا وَمَيِّتًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ [1].

وإن من أعظم آثار الحج في تزكية النفس أن علم المسلم ضرورة التحكم في كل حركاته وسكناته قولاً وفعلاً وسلوكًا ، قال تعالىٰ: قال تعالىٰ: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ

(١)موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للشيخ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ) صـ٧٤.

فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[1] ، «وَالرَّفَثُ» اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ لَغْوٍ وَفُحْشٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ مُغَازَلَةُ النِّسَاءِ، وَمُدَاعَبَتُهُنَّ وَالتَّحَدُّثُ بِشَأْنِ الْجِمَاعِ وَمُقَدِّمَاتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُهَيِّجُ دَاعِيَةَ الْجِمَاعِ الْمَحْظُورِ وَالدَّاعِي إِلَى الْمَحْظُورِ مَحْظُورٌ ، «وَالْفِسْقُ» اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ خُرُوجٍ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، «وَالْجَدَلُ» هُوَ الْمُبَالَغَةُ فِي الْخُصُومَةِ وَالْمُمَارَاةِ بِمَا يُورِثُ الضَّغَائِنَ وَيُنَاقِضُ حُسْنَ الْخُلُقِ [2]، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل صيانة النفس في الحج من الرفث واللغو والفسوق سببًا لمغفرة الذنوب وهي الغاية العظمى من الحج ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)[3]، وبالجملة فالحج كل شعيرة من شعائره تعلم صاحبها تزكية النفس ، وهذا من جملة المنافع التي عبرت عنها الآية القرآنية الشريفة: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ}[4]، إِنَّمَا نَكَّرَ الْمَنَافِعَ لِأَنَّهُ أَرَادَ مَنَافِعَ مُخْتَصَّةً بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ[5].

---

(١)البقرة: ١٩٧.

(٢)إحياء علوم الدين جـ١ صـ ٣٦٣.

(٣)رواه مسلم في صحيحه كتاب الحج/ بَابٌ فِي فَضْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَيَوْمِ عَرَفَةَ / برقم ١٣٥٠ .

(٤)الحج: ٢٨.

(٥)مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢٣صـ ٢٢١.

المطلب الثالث: العلم

لا يخفى على ذي بصيرة ولب ما للعلم من أثر واضح جلي في تحقيق تزكية النفس وتهذيبها ، ولقد بين الشرع الحنيف بنصوصه الحكيمة من قرآن وسنة فضل العلم ، ففي القرآن الكريم قال تعالى :{ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}(١) ، وقال سبحانه:{يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}(٢) ، وأنعم بذلك من قدر ومن رفعة حينما يرفع المولى سبحانه وتعالى أهل العلم ويعلي شأنهم ويزيد في قدرهم ، وقال سبحانه:{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}(٣) ، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي ترغب في طلب العلم والحث عليه.

وبين النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) فضل طلب العلم فقال:(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)(٤). وَقَالَ الفاروق عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) : (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَهُ ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ)(٥) .

---

(١)التوبة:١٢٢.

(٢)المجادلة:١١.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) رواه أبو داود في سننه كتاب: العلم / بَابُ الْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ/ برقم ٣٦٤١، والترمذي في سننه أبواب العلم/ بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الفِقْهِ عَلَى العِبَادَةِ برقم ٢٦٨٢، والحديث حسن بشواهده. انظر: الفتح ١/ ١٦٠

(٥) الزهد للإمام أحمد صـ٩٩،برقم ٦٣٠ .

قال الماوردي [1] رحمه الله: اعْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ مَا رَغَّبَ فِيهِ الرَّاغِبُ، وَأَفْضَلُ مَا طَلَبَ وَجَدَّ فِيهِ الطَّالِبُ، وَأَنْفَعُ مَا كَسَبَهُ وَاقْتَنَاهُ الْكَاسِبُ؛ لِأَنَّ شَرَفَهُ يُثْمِرُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَفَضْلَهُ يُنْمِي عَلَى طَالِبِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[2] فَمَنَعَ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ لِمَا قَدْ خُصَّ بِهِ الْعَالِمُ مِنْ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[3] فَنَفَى أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الْعَالِمِ يَعْقِلُ عَنْهُ أَمْرًا، أَوْ يَفْهَمُ مِنْهُ زَجْرًا.[4] ، فإن كان هذا هو حال العالم، وهذا فضله فإنه حري أن يكون زكي النفس ، وما حمله على ذلك إلا العلم، فالعلماء هم ورثة الأنبياء في الفضائل والمكارم وفي مقدمة الإرث النبوي زكاة النفوس وسمو الأرواح.

وكلما ازداد العالم علمًا زادت معرفته بالله عز وجل ، وكلما زادت معرفته بالله تبارك وتعالى كان من أكثر الناس خشية للباري جل جلاله ، وكلما زادت الخشية في قلبه مستحضرًا عظمة ربه زكت نفسه وصفت سريرته ، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}[5] ، أي: ما يخشى الله إلا العلماء العرفاء به، لأن الخشية ليست هي خوف العقاب، بل هيئة في القلب خشوعية انكسارية عند تصوّر وصف العظمة واستحضاره لها، فمن لم يتصوّر عظمته لم يمكنه خشيته، ومن تجلى الله له بعظمته، خشيه حق خشيته، وبين الحضور التصوّريّ الحاصل للعالم غير العارف، وبين التجلّي الثابت

---

(١)علي بن أحمد بن حبيب البصري ، أبو الحسن الماوردي ، أحد الأئمة الأعلام ، في الفقه والتفسير ، والآداب . من أهم مؤلفات : النكت والعيون في التفسير ، و الحاوي في الفقه الشافعي ، واختصره في الإقناع، وأدب القاضي، وأدب الدنيا والدين ، وغيرها . توفي سنة ٤٥٠هـ .انظر في ترجمته معجم الأدباء ١٥/ ٥٢، وطبقات المفسرين للداودي ١/ ٤٢٧، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ٣/ ٣٠٣.

(٢)الزمر: ٩.

(٣)العنكبوت: ٤٣.

(٤) ينظر: أدب الدنيا والدين صـ٣٦.

(٥)فاطر: ٢٨.

للعالم العارف- بون بعيد ، ومراتب الخشية لا تحصىٰ بحسب مراتب العلم والعرفان [1]، فالعلماء هم الذين يتفكرون في عجائب مصنوعاته، ودلائل قدرته، فيعرفون عظمته وكبرياءه، وجلاله وجماله، ويتفكرون فيما أعد الله لَمن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب، وفيما أعد لَمن خافه وأطاعه من الثواب، وحسن المآب، فيزدادون خشية، ورهبة، ومحبة، ورغبة في طاعته، وموجب رضوانه، دون مَن عداهم من الجهّال[2]، يقول الإمام الرازي [3]رحمه الله: الْخَشْيَةُ بِقَدْرِ مَعْرِفَةِ الْمَخْشِيِّ، وَالْعَالِمُ يَعْرِفُ اللَّهَ فَيَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْعَالِمَ أَعْلَىٰ دَرَجَةً مِنَ الْعَابِدِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[4] فَبَيَّنَ أَنَّ الْكَرَامَةَ بِقَدْرِ التَّقْوَىٰ، وَالتَّقْوَىٰ بِقَدْرِ الْعِلْمِ. فَالْكَرَامَةُ بِقَدْرِ الْعِلْمِ لَا بِقَدْرِ الْعَمَلِ [5]، وعبَّر هنا بالخشية دون الرهبة لأن المقام مقام خشية لا رهبة ، والفرق بين الخشية والرهبة أنّ الرهبة خوف يوجب هرب صاحبه فيجرىٰ في هربه، والخشية إذا حصلت كبحت جماح صاحبها فيبقىٰ مع الله، فقدمت الخشية علىٰ الرهبة في الجملة[6].

---

(١)محاسن التأويل للإمام محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفىٰ: ١٣٣٢هـ) جـ٨ صـ١٦٨.

(٢)البحر المديد في تفسير القرآن المجيد جـ٤ صـ ٥٣٧.

(٣)أبو عبد اللهَّ محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي ، الشافعي ، ولد سنة ٥٤٤هـ ، أهم مؤلفاته تفسير مفاتيح الغيب ، المحصول في أصول الفقه ، والبيان والبرهان في الرد علىٰ أهل الزيغ والطغيان » ، توفي سنة ٦٠٦هـ . انظر في ترجمته وفيات الأعيان ٢/ ٢٦٥، طبقات المفسرين ٢/ ٢١٥، شذرات الذهب ٥/ ٢١، التفسير والمفسرون ١/ ٢٠٦.

(٤)الْحُجُرَاتِ: ١٣.

(٥)مفاتيح الغيب جـ٢٦ صـ٢٣٦.

(٦)لطائف الإشارات للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري (المتوفىٰ: ٤٦٥هـ) جـ٣ صـ ٢٠٣.

المطلب الرابع: محاسبة النفس.

محاسبة النفس من أهم وسائل تزكية النفس ، والمحاسبة في اللغة مصدر حاسب يحاسب، وهو مأخوذ من مادّة (ح س ب) الّتي تدلّ على العدّ، تقول: حسبت الشّيء أحسبه حسبًا وحسبانًا، وحسابًا وحسابة إذا عددته، والمعدود: محسوب وحسب أيضًا والأخير فعل بمعنى مفعول، ومنه قولهم: ليكن عملك بحسب ذلك أي على قدره وعدده، وحاسبته من المحاسبة ، والحساب والمحاسبة: عدّك الشّيء، وحسب الشّيء يحسبه، بالضّمّ، حسبا وحسابا وحسابة: عدّه. وحاسبه: من المحاسبة[1].

ومحاسبة النفس تعني أَنْ يَتَصَفَّحَ الإنسانُ فِي لَيْلِهِ مَا صَدَرَ مِنْ أَفْعَالِ نَهَارِهِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْطَرُ لِلْخَاطِرِ وَأَجْمَعُ لِلْفِكْرِ. فَإِنْ كَانَ مَحْمُودًا أَمْضَاهُ وَأَتْبَعَهُ بِمَا شَاكَلَهُ وَضَاهَاهُ، وَإِنْ كَانَ مَذْمُومًا اسْتَدْرَكَهُ إِنْ أَمْكَنَ وَانْتَهَى عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ[2].

ولقد وردت النصوص الشرعية بضرورة محاسبة النفس ، قال تعالى: { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ}[3]، أَي: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَانْظُرُوا مَاذَا ادَّخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرْضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ تَأْكِيدٌ ثَانٍ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ أَي اعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ منكم خافية ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير[4].

---

(١)ينظر: تهذيب اللغة للإمام محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) جـ ٤صـ١٩٣ مادة حسب ، ومجمل اللغة للإمام أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) جـ١صـ ٢٣٣مادة حسب ، ولسان العرب للإمام محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) جـ١ صـ٣٤١ مادة حسب.

(٢)أدب الدنيا والدين للماوردي صـ١٥٦.

(٣) الحشر:١٨.

(٤)تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ٨ صـ١٠٦.

وقال الترمذي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ) هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: مَنْ دَانَ نَفْسَهُ يَقُولُ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ القِيَامَةِ " وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، قَالَ: " حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا وَيُرْوَى عَنْ مَيْمُونِ بْنِ م مهران[1]:قَالَ: «لَا يَكُونُ العَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ»[2] .

ومحاسبة النفس لها أهمية عظمى في حياة المسلم ، قال الإمام الغزالي رحمه الله: اعلم أنّ مطالب المتعاملين في التّجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الرّبح، وكما أنّ التّاجر يستعين بشريكه فيسلّم إليه المال حتّى يتّجر ثمّ يحاسبه، فكذلك العقل هو التّاجر في طريق الآخرة وإنّما مطلبه وربحه تزكية النّفس لأنّ بذلك فلاحها، قال الله تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها}[3] وإنّما فلاحها بالأعمال الصّالحة، والعقل يستعين بالنّفس في هذه التّجارة، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكّيها كما يستعين التّاجر بشريكه وغلامه الّذي يتّجر في ماله، وكما أنّ الشّريك

---

(١)ميمون بن مهران: الرقي، أبو أيوب، فقيه من القضاء، كان مولى لامرأة بالكوفة وأعتقته فنشأ فيها ثم استوطن الرقة، فكان عالم الجزيرة وسيدها، استعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها، وكان على مقدمة الجند الشامي مع معاوية بن هشام بن عبد الملك لما عبر البحر غازيا إلى قبرص سنة ١٠٨ هـ كان ثقة في الحديث كثير العبادة، توفي سنة ١١٧ هـ الموافق ٧٣٥ م، انظر: تذكرة الحفاظ: جـ١ صـ٩٣. والكامل لابن الأثير: جـ ٥صـ ٥٢، والأعلام للزركلي جـ٦ صـ ٣٤٢.

(٢)الحاقة: ١٨، رواه الترمذي في سننه أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برقم ٢٤٥٩ وينظر: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار للإمام أبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) جـ٧صـ١٩٥ برقم ٣٥٢٧١ ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ) جـ٤ صـ ٨٩، وكتاب الزهد لابن المبارك صـ ١٠ .

(٣)الشمس:٩- ١٠.

يصير خصما منازعا يجاذبه في الرّبح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلا ويراقبه ثانيا، ويحاسبه ثالثا، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا؛ العقل يحتاج إلى مشارطة النّفس أوّلا فيوظّف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشّروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطّرق، ثمّ لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنّه لو أهملها لم ير منها إلّا الخيانة وتضييع رأس المال، كالعبد الخائن إذا خلا له الجوّ وانفرد بالمال، ثمّ بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها، ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإنّ هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشّهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النّفس أهمّ كثيرا من تدقيقه في أرباح الدّنيا مع أنّها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثمّ كيفما كانت فمصيرها إلى التّصرّم والانقضاء، ولا خير في خير لا يدوم، بل شرّ لا يدوم خير من خير لا يدوم، لأنّ الشّرّ الّذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشّرّ، والخير الّذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما، وقد انقضى الخير، ولذلك قيل:

أشدّ الغمّ عندي في سرور *** تيقّن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتّضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإنّ كلّ نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس- ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك- خسران عظيم هائل، لا تسمح به نفس عاقل، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصّبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النّفس كما أنّ التّاجر عند تسليم البضاعة إلى الشّريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنّفس: مالي بضاعة إلّا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس من التّجارة وطلب الرّبح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأنسأ في أجلي وأنعم عليّ به، ولو توفّاني لكنت أتمنّى أن يرجعني إلى الدّنيا يوما واحدا حتّى أعمل فيه صالحا، فاحسبي أنّك قد توفّيت، ثمّ قد رددت فإيّاك ثمّ إيّاك أن تضيّعي هذا اليوم، فإنّ كلّ نفس من الأنفاس جوهرة لها قيمة[1].

---

(١)إحياء علوم الدين جـ٤ صـ٣٩٤ .

وقال العلامة ابن القيمّ رحمه الله: فَإِنَّ زَكَاتَهَا وَطَهَارَتَهَا مَوْقُوفٌ عَلَى مُحَاسَبَتِهَا. فَلَا تَزْكُو وَلَا تَطْهُرُ وَلَا تَصْلُحُ أَلْبَتَّةَ إِلَّا بِمُحَاسَبَتِهَا ، قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ – وَاللَّهِ – لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَةِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَةٍ؟ مَا أَرَدْتُ بِمَدْخَلِ كَذَا وَمَخْرَجِ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِهَذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا. وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ ، فَبِمُحَاسَبَتِهَا يَطَّلِعُ عَلَى عُيُوبِهَا وَنَقَائِصِهَا. فَيُمْكِنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا(١).

والنصوص المأثورة في ضرورة محاسبة النفس كثيرة ، يقول ابن الجوزي: وما زلت أغلب نفسي تارةً، وتغلبني أخرىٰ، ثم تدعي الحاجة إلىٰ تحصيل ما لا بد لها منه، وتقول: فما أتعدىٰ في الكسب المباح في الظاهر! فقلت لها: أو ليس الورع يمنع من هذا؟ قالت: بلىٰ، قلت: أليست القسوة في القلب تحصل به؟ قالت: بلىٰ، قلت: فلا خير لك في شيء هذا ثمرته! ، فخلوت يومًا بنفسي، فقلت لها: ويحك! اسمعي أحدثك! إن جمعت شيئًا من الدنيا من وجه فيه شبهة، أفأنت علىٰ يقين من إنفاقه؟ قالت: لا، قلت: فالمحنة أن يحظىٰ به الغير، ولا تنالين إلا الكدر العاجل، والوزر الذي لا يؤمن ، ويحك! اتركي هذا الذي يمنع منه الورع لأجل الله، فعامليه بتركه. وكأنك لا تريدين أن تتركي إلا ما هو محرم فقط، أو ما لا يصح وجهه؟ أو ما سمعت أن: "من ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه"؟! أما لك عبرة في أقوام جمعوا، فحازه سواهم، وأملوا فما بلغو مناهم؟! كم من عالم جمع كُتُبًا كثيرةً ما انتفع بها! وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاءٍ! وكم من طيب العيش لا يملك دينارين! وكم ن ذي قناطير مُنَغَّصٍ!

أما لك فطنة تتلمح أحوال من يترخص من وجهٍ، فيسلب منها من أوجهٍ؟! ربما نزل المرض بصاحب الدار، أو ببعض من فيها، فأنفق في سنته أضعاف ما ترخيص في كسبه، والمتقي معافًى.

فضجت النفس من لومي، وقالت: إذا لم أتعد واجب الشرع، فما الذي تريد مني؟! فقلت لها: أضن بك عن الغبن، وأنت أعرف بباطن أمرك، قالت: فقل لي: ما أصنع؟ قلت: عليك بالمراقبة لمن يراك، ومثلي نفسك بحضرة معظم من الخلق؛ فإنك بين يدي الملك الأعظم، يرىٰ من باطنك ما لا

(١)مدارج السالكين جـ ٢ صـ ٥١٠.

يراه المعظمون من ظاهرك، فخذي بالأحوط، واحذري من الترخص في بيع اليقين والتقوىٰ بعاجل الهوىٰ، فإن ضاق الطبع مما تلقين، فقولي له: مهلًا، فما انقضت مدة الإشارة! والله مرشدك إلىٰ التحقيق، ومعينك بالتوفيق[1].

(١)صيد الخاطر للإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفىٰ: ٥٩٧هـ) صـ١٦٤.

المطلب الخامس: الاستقامة.

وردت الاستقامة في كتب اللغة بمعنى الاعتدال ، فهي من التقويم وهو التعديل وإزالة الاعوجاج ، والسين والتاء فيها للطلب أي: اطلبوا الاعتدال في كل شيء [1].

والاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين ، وهي القيام بين يدي الله علي حقيقة الصدق والوفاء بالعهد ، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والبنيان ،فالاستقامة فيها وقوعها لله ، وبالله وعلي أمر الله[2] ، والاستقامة نهاية الغايات، وأعظم الوصايا، وأجلُّ العطايا ، ولعظيم فضلها أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه فعن سفيان بن عبد الله الثقفي[3]رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، وفي رواية غيرك ، فقال صلى الله عليه وسلم: (قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ)[4].

وقد ورد الأمر بالاستقامة في تسعة مواضع بصيغة الماضي منها والمضارع ، وهي:

١. قوله تعالى: { فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[5].

٢. قال تعالى: { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[6].

٣. قال تعالى: { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[7].

---

(١)انظر الصحاح ٤/ ١٦٣٤، ولسان العرب ١٢/ ٤٩٨قَوَمَ ، والقاموس المحيط ٢/ ١٥١٧، و مختار الصحاح ٥٥٧، المصباح المنير ٣٠٩، مادة قوم في جميعها.

(٢) مدراج السالكين ٢/ ١٠١/ ١٠٢ .

(٣)سفيان بن عبد الله الثقفي هو سفيان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث الثقفي الطائفي له صحبة وكان عاملا لسيدنا عمر علي الطائف ، وله أحاديث في صحيح مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، ترجمته في تهذيب الكمال ١١/ ١٦٩/ ٢٤٠٨ ، الإصابة ٣/ ١٢٤/ ٣٣١٧ ، الاستيعاب ٢/ ١٩٠/ ١٠٠٨.

(٤)أخرجه مسلم ك الإيمان ، ب جامع أوصاف الإسلام ١/ ٦٥ وفيه فاستقم بدل ثم استقم ، والترمذي في الجامع ك الزهد ب ما جاء في حفظ اللسان ٤/ ٦٠٧.

(٥)التوبة آية ٧ .

(٦)يونس ٨٩ .

(٧)هود ١١٢.

٤. قال تعالى: { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ }(١).

٥. قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ }(٢).

٦. قال تعالى : { فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ }(٣).

٧. قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }(٤).

٨. قال تعالى : { وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا }(٥).

٩. قال تعالى : { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ }(٦).

والاستقامة في القرآن الكريم جاءت على أربعة أوجه :

الأول : بمعنى تبليغ الرسالة ، ومنه قوله تعالى { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(٧).

الثاني : بمعنى الدعاء والدعوة ، ومنه قوله تعالى : { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}(٨).

الثالث : بمعنى الإقبال على الطاعة ، ومن قوله تعالى : { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ }(٩).

---

(١)فصلت ٦.

(٢)فصلت ٣٠.

(٣)الشورى ١٥.

(٤)الأحقاف ١٣.

(٥)الجن ١٦.

(٦)التكوير ٢٨.

(٧)هود ١١٢.

(٨)يونس ٨٩ .

(٩)فصلت ٦.

الرابع : بمعنىٰ الثبات علىٰ التوحيد والشهادة ، ومنه : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[1].

وفسرها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعدم الشرك بالله عز وجل[2]،وفسرها سيدنا الفاروق عمر رضي الله عنه بقوله: هي استقاموا علي الطريق لطاعته ثم لم يرغوا روغان الثعالب[3]، وورد عن سيدنا عثمان رضي الله عنه : أن الاستقامة هي الإخلاص لله عز وجل في العمل[4][5]، وورد عن سيدنا علي كرم الله وجهه أن الاستقامة بمعني أداء الفرائض[6].

وقد جعل الله ثواب الاستقامة أعظم الثواب، وأمَّن صاحبها من العذاب، قال الله تعالىٰ :{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ *نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}[7]، قال صاحب اللطائف: «ثُمَّ» استقاموا: ثم حرف يقتضىٰ التراخي، فهو لا يدل علىٰ أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين، ولكن معناه استقاموا في الحال، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلىٰ وقت خروجهم من الدنيا، وهو آخر أحوال كونهم مكلّفين، ويقال: قالوا بشرط الاستجابة أولا، ثم استبصروا بموجب الحجة، ولم يثبتوا علىٰ وصف التقليد، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة ، «اسْتَقامُوا» : الاستقامة هي الثبات علىٰ شرائط الإيمان

---

(١)الأحقاف ١٣، و انظر بصائر ذوي التمييز ٢/ ١٤٦، لباب التأويل للخازن ٤/ ٨٢ ، والبحر المحيط لأبي حيان٧/ ٤٦٤ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣٢٦ ، وروح المعاني للألوسي ١٢/ ٥٠١.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٢/ ٢٤/ ١١٤، ١١٥ ، الدر ٧/ ٣٢٢ ، القرطبي ١٥/ ٣٤٣ ، والبحر المحيط ٧/ ٤٧٥ ، وابن كثير ٧/ ١٧٤ ،١٧٥.

(٣) ينظر: المرجع السابق.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٥صـ ٣٤٣.

(٥) والبحر المحيط جـ ٧صـ٤٧٥

(٦) ينظر: المرجع السابق.

(٧)فصلت ٣٠-٣٢.

بجملتها من غير إخلال بشيء من أقسامها، ويقال: هم على قسمين: مستقيم (في أصول) التوحيد والمعرفة.. وهذه صفة جميع المؤمنين ، ومستقيم في الفروع من غير عصيان.. وهؤلاء مختلفون فمنهم.. ومنهم، ومنهم ، «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ» : الذين لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد، ولم يشرك.. فله الأمان من الخلود ، ويقال: من كان له أصل الاستقامة أمن من الخلود في النار، ومن له كمال الاستقامة أمن من الوعيد من غير أن يلحقة سوء بحال.. ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم فمستقيم في عهده. ومستقيم في عقده، ومستقيم في جهده ومراعاة حدّه، ومستقيم في عقده وجهده وحدّه وحبّه وودّه.. وهذا أتمّهم ، ويقال: استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله ، ويقال: استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم في صحة القصد بدوام الوجد ، ويقال: استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم، ويقال: أقاموا على طاعته، واستقاموا في معرفته، وهاموا في محبته، وقاموا بشرائط خدمته ، ويقال: استقامة الزاهد ألا يرجع إلى الدنيا، وألا يمنعه الجاه بين الناس عن الله. واستقامة العارف ألا يشوب معرفته حظّ في الدارين فيحجبه عن مولاه. واستقامة العابد ألا يعود إلى فترته واتباع شهوته، ولا يتداخله رياء وتصنّع، واستقامة المحبّ ألا يكون له أرب من محبوبه، بل يكتفي من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده، «أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا» : إنما يكون الخوف في المستقبل من الوقت، من حلول مكروه أو فوات محبوب، فالملائكة يبشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون، وكل محذور لهم لا يكون. والحزن من حزونة الوقت، ومن كان راضيا بما يجرى فلا حزن له في عيشه. والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزونة في أحوالهم، وإنما هم في الرّوح والراحة.

«وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ» : أي بحسن المآب، وبما وعد الله من جميل الثواب.

والذي هو موعود للأولياء بسفارة الملك موجود اليوم لخواص عباده بعطاء الملك فلا يكون لأحدهم مطالعة في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت فلا يكون له خوف لأن الخوف- كما قلنا من قبل- ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمّا من زوال محبوب أو حصول مكروه، وإن الذي بصفة

الرضا لا حزونة في حاله ووقته ، ويمكن القول: «أَلَّا تَخافُوا» من العذاب، «وَلا تَحْزَنُوا» على ما خلفتم من الأسباب، «وَأَبْشِرُوا» بحسن الثواب في المآب.

ويقال: «أَلَّا تَخافُوا» من عزل الولاية، «وَلا تَحْزَنُوا» على ما أسفلتم من الجناية، «وَأَبْشِرُوا» بحسن العناية في البداية ، ويقال: «أَلَّا تَخافُوا» مما أسلفتم، «وَلا تَحْزَنُوا» على ما خلّفتم، «وَأَبْشِرُوا» بالجنة التي لها تكلفتم.

ويقال: «أَلَّا تَخافُوا» المذلّة، «وَلا تَحْزَنُوا» على ما أسلفتم من الزلّة، «وَأَبْشِرُوا» بدوام الوصلة[1].

ويتجلى أثر الاستقامة في تزكية النفس في أن العبد المستقيم يتجنب المعاصي والآثام والزلل وسفاسف الأمور والتكاسل عن الطاعات ، وكل ما يغضب الله عز وجل لأنه ذاق لذة الطاعة وحلاوة الإيمان ومتعة الاستقامة ، ومن ثم تهون عليه الدنيا بملذاتها ، قال صاحب الرسالة القشيرية: الاستقامة درجة بِهَا كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ومن لَمْ يكن مستقيما فِي حالته ضاع سعيه وخاب جهده ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا}[2] ومن لَمْ يكن مستقيما فِي صفته لَمْ يرتق من مقامه إِلَى غيره وَلَمْ يبين سلوكه عَلَى صحة فمن شرط المستأنف الاستقامة فِي أحكام البداية كَمَا أَن من حق العارف الاستقامة فِي آداب النهاية فمن أمارات استقامة أهل البداية أَن لا تشوب معاملتهم فترة ومن أمارات استقامة أهل الوسايط أَن لا يصحب منازلتهم وقفة ومن أمارات استقامة أهل النهاية أَن لا تتداخل مواصلتهم حجبة[3] ، وقال في موضع آخر: واعلم أَن الاستقامة توجب إدامة الكرامة قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى

---

(١)لطائف الإشارات جـ٣ صـ٣٢٩.

(٢)النحل: ٩٢.

(٣)الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٣٥٦.

الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}[1] لَمْ يقل: سقيناهم ، بَل قَالَ: (أسقيناهم) يقال: أسقيته إِذَا جعلت لَهُ سقيا فَهُوَ يشير إِلَى الدوام[2].

إن الاستقامة الحقة هي عين الكرامة ، لأن كلَّ ما في الدين من سعادةٍ ، وسكينةٍ ، واطمئنانٍ ، وتوفيقٍ ، وشعورٍ بالأمن ، وشعورٍ بالتفوق ، وشعورٍ بالفوز ، لا ينالها الإنسان إلا إذا استقام على أمر الله .

(١)الجن: ١٦.

(٢)الرسالة القشيرية جـ٢ صـ٣٥٨.

المبحث الثالث:

معوقات تزكية النفس

المبحث الثالث:

معوقات تزكية النفس

إذا كانت تزكية النفوس هي إحدى الوسائل وأهمها في السير إلى الله ، إذ بها يتهيأ القلب ويستعد للاتصال بالله تعالى ، ولكن كثيرا ما يواجه العبد السائر إلى الله تعالى جملة من العقبات والحجب تحول بينه وبين الوصول والتواصل مع الله عز وجل ، ويمكن جمع هذه العقبات أو المعوقات الكثيرة التي تقف بمثابة حاجز بين العبد وتزكية نفسه في ثلاثة حجب ، وهي: الكبر ، والرياء ، والعجب .

وسوف نتناول هذه المعوقات بشيء من الدراسة في الصفحات التالية إن شاء الله رجاء أن يصرفنا ربنا عنها وأن يصرفها عنا .

المطلب الأول:

الكبر

الكبر مرض خطير، وداء عليل، لا يخلو منه كثير من البشر وإن تفاوتت النسب ، موجب لغضب الرحمن، وسبب عظيم من أسباب الحرمان ، وأسهل طريق لدخول النيران ، ويؤدي إلى انعدام الثقة والأمان ، ويهدد بنيان المجتمع ، ويؤدي إلى زرع الشكوك والضغائن .

معنى الكِبْر لغةً : الكِبْر: العَظَمَة والتَّجَبُّر، كالكِبْرِياء، وقد تَكَـبَّرَ واسْتَكْبَرَ وَتكابَرَ، والتَّكَبُّر والاسْتِكْبار: التَّعَظُّم، والكِبْر بالكسر: اسم من التكبر[1].

معنى الكِبْر اصطلاحًا : اختلفت كلمة العلماء في بيان حقيقة الكبر ، رغم اتفاقهم على ذمه ، ومن أحسن ما قيل في بيان حقيقة الكبر ما قاله الجاحظ[2] في بيان حقيقة الكبر فقال: هو استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له [3].

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بكلمة جامعة مانعة فقال: (الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ الناسِ)[4] ، ومعنى بَطَرُ الْحَقِّ أي: أن يجعل الحق باطلا ودفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا[5]،وغَمْطُ الناسِ

---

(١)ينظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٧/ ١٢/ كبر، والقاموس المحيط للعلامة الفيروز آبادي ص ٤٦٨/ كبر، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي١٤/ ٨/ كبر ، ولسان العرب لابن منظور٥/ ١٢٩/ كبر.

(٢)هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب مولده ووفاته في البصرة. سقطت عليه جملة من الكتب فمات عام٢٥٥هـ ، له تصانيف كثيرة، منها الحيوان ، والبيان والتبيين ، و سحر البيان ، و البخلاء ، وغيرها ، ينظر: إرشاد الأريب ٦/ ٥٦ ،والوفيات ١/ ٣٨٨ ، وأمراء البيان ٣١١ / ٤٨٧.

(٣)ينظر: تهذيب الأخلاق للجاحظ ص٣٢.

(٤)أخرجه مسلم في صحيحه ك الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه/ ١٤٧.

(٥)شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٩٠.

أي: احتقارهم وانتقاصهم حتى لا يراهم شيئا ، وفي رواية: قيل: يا رسول الله، فما الكِبْر؟، قال: (سَفَه الحَقِّ، وغمْص الناسِ)[1].

فالكبر إذا نفخة شيطانية ، تعمي القلوب التي في الصدور ، فتسلب عنها أنوار الحق ، وتمحق منها أنوار البصيرة والمعرفة ، وتحجب عنه كل سبل الخير.

ذم الكِبْر والنهي عنه في القرآن الكريم:

ورد ذم الكبر في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، بأساليب متعددة ليحرك القلوب إلى بغضه وعدم التخلق به ، من هذه المواضع:

الكِبْر من أوَّل الذنوب التي عُصي الله تبارك وتعالى بها، قال الله تعالى مبيِّنًا سبب امتناع إبليس عن السجود لآدم :{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[2].

والكبر سبب لهلاك الكثير من الأمم والدول ، قال تعالى مخبرا عن قوم نوح عليه السلام: {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}[3]، وقال عن قوم عاد الذين طغوا في الأرض فسادا وكبرا وعنادا: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}[4]، وها هم قوم ثمود ينهجون نفس النهج في الاستكبار والتعالي، فيردون دعوة الله عزَّ وجلَّ، ويكذبون نبيه صالح عليه السلام فأهلكهم الله كما أهلك

---

(١)أخرجه أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما برقم ٦٥٨٣، والبخاري في الدب المفرد ١/ ١٩٢/ ٥٤٨.

(٢)البقرة: ٣٤.

(٣)نوح: ٧.

(٤)فصلت: ١٥-١٦.

أسلافهم من المتكبرين فقال تعالى :{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}(١)، وأما فرعون الذي ملأ الدنيا كبرًا وعجبًا وخيلاءً، حتى وصل به الحال أن احتكر الحقيقة والعقل ، بل وصل به كبره أن ادَّعى الربوبية والألوهية، فكانت عدالة السماء مع فرعون هي الاهلاك في الدنيا والنار مصحوبة باللعنة يوم القيامة ، قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ*وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ}(٢).

والكِبْر من أكبر الأسباب في الإعراض عن آيات الله عز وجل والصد عنها، قال الله تبارك وتعالى:{ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }(٣) ، وهو كذلك سبب للصرف عن كلام الله عز وجل الذي هو أشرف كلام ، والصرف هنا صرف عن السماع والاهتداء بهدايات القرآن الكريم ، قال الله تبارك وتعالى:{ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ}(٤)، والمعنى: سأحرم المتكبرين بركات الاتباع حتى لا يقابلوا الآيات التي

---

(١)الأعراف: ٧٥-٧٦.

(٢)القصص: ٣٨-٤٢.

(٣)الجاثية: ٧-٨.

(٤)الأعراف: ١٤٦.

يكاشفون بها بالقبول، ولا يسمعوا ما يخاطبون به بسمع الإيمان[1]، والمراد: سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ المنصوبة في الآفاق والأنفس الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا من عجائب المصنوعات فلا يتفكرون فيها، أو القرآن وغيره من الكتب، أصرفُ عنها الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون، ولا يؤمنون بها، عقوبة لهم على تكبرهم[2].

كذلك الكبر سبب لدخول النَّار والخلود فيها، قال الله تعالى :وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ}[3] أَيْ: بِسَبَبِ تَكَبُّرِكُمْ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ أَيْ: تَخْرُجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَتَعْمَلُونَ بِمَعَاصِيهِ، فَجَعَلَ السَّبَبَ فِي عَذَابِهِمْ أَمْرَيْنِ: التَّكَبُّرَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَالْعَمَلَ بِمَعَاصِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا شَأْنُ الْكَفَرَةِ فَإِنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا[4].

والكبر يمنع صاحبه من دخول الجنة ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ) قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: (إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ)[5].

قال النووي في شرح الحديث: اخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِهِ فَذَكَرَ الْخَطَّابِيُّ فِيهِ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ التَّكَبُّرُ عَنِ الْإِيمَانِ فَصَاحِبُهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَصْلًا إِذَا مَاتَ عَلَيْهِ وَالثَّانِي أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ كِبْرٌ حَالَ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غل وَهَذَانِ التَّأْوِيلَانِ فِيهِمَا بُعْدٌ فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ وَرَدَ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ عَنِ الْكِبْرِ الْمَعْرُوفِ وَهُوَ الِارْتِفَاعُ عَلَى النَّاسِ وَاحْتِقَارُهُمْ وَدَفْعُ الْحَقِّ فَلَا

---

(١)لطائف الإشرات١/ ٥٧٠.

(٢)البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة٢/ ٢٥٩.

(٣)الأحقاف: ٢٠ .

(٤)فتح القدير للشوكاني٥/ ٢٦ .

(٥)أخرجه مسلم في صحيحه كتاب: الإيمان/ باب: تحريم الكبر وبيانه / ٩١.

يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذَيْنِ التَّأْوِيلَيْنِ الْمُخَرِّجَيْنِ لَهُ عَنِ الْمَظْلُوبِ بَلِ الظَّاهِرُ مَا اخْتَارَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دُونَ مُجَازَاةٍ إِنْ جَازَاهُ وَقِيلَ هَذَا جَزَاؤُهُ لَوْ جَازَاهُ وَقَدْ يَتَكَرَّمُ بِأَنَّهُ لَا يُجَازِيهِ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ كُلُّ الْمُوَحِّدِينَ الْجَنَّةَ إِمَّا أَوَّلًا وَإِمَّا ثَانِيًا بَعْدَ تَعْذِيبِ بَعْضِ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ الَّذِينَ ماتوا مصرين عليها وقيل لا يدخلها مَعَ الْمُتَّقِينَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَالْمُرَادُ بِهِ دُخُولُ الْكُفَّارِ وَهُوَ دُخُولُ الْخُلُودِ[1].

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية في ذم الكبر وأهله أعظم من أن تحصى بصريح نصها ومبناه ، أو مضمونه ومفهومه ومعناه ، والحاصل : أن الكبر من أهم أسباب البعد عن الله عز وجل ويؤدي إلى قسوة القلب ، فلا يتمكن صاحبه من تزكية نفسه ، وأنى لنفس أن تُزكى وصاحبها متكبر؟.

(١)المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي ٢/ ٩١.

المطلب الثاني

الـريـــــاء

أولا: حقيقة الرياء:

يعد الرياء من أعظم أمراض القلوب خطورةً، وأكثرها انتشاراً بين الناس لأنه يتسلل إلى القلب من طرف خفي فلا يدري به العبد حتى يصيبه في قلبه .

والرياء بالمد في اللغة مصدر رآه على فاعله، أي أراه خلاف ما عليه، ومصدره يأتي على بناء مفاعلة وفعال، وهو مهموز العين؛ لأنه من الرؤية، ويجوز تخفيفها بقلبها ياء [1].

واختلف العلماء في بيان حقيقة الرياء ، ولكن عبارات العلماء حول الرياء اتفق مضمونها على شيء واحد هو : أن العبد لا يقصد بالعبادة وجه الله عز وجل وحده، بل يريد مع ذلك عرضًا دنيويًّا ، وهذه جملة من عبارات العلماء حول الرياء.

- قال العز بن عبد السلام: «الرياء إظهار عمل العبادة لينال مُظهرها عرضًا دنيويًّا إما بجلب نفع دنيوي أو تعظيم أو إجلال»[2].
- وقال القرطبي: «حقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس»[3].
- وقال الحارث المحاسبي: «الرياء إرادة العبد العباد بطاعة الله»[4].
- وقال الغزالي: «هو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات»[5].
- وقال أيضًا: «وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإرائهم خصال الخير».

---

(١)انظر المصباح المنير ص٢٤٧، لسان العرب مادة رأي ٥/ ٨٤ فما بعدها.

(٢) قواعد الأحكام ١/ ١٤٧.

(٣) تفسير القرطبي ٢٠/ ٢١٢.

(٤) الرعاية ص٣٣.

(٥) تهذيب موعظة المؤمنين ص٢٢٨، ص٢٨٩.

– وقال الصنعاني: «الرياء أن يفعل الطاعة، ويترك المعصية مع ملاحظة غير الله، أو يخبر بها، أو يحب أن يُطَّلَع عليها لمقصد دنيوي من مال أو نحوه»[1].

– وقال الحافظ ابن حجر: «هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس فيحمدوا صاحبها»[2].

الفرق بين الرياء والسمعة:

عن جندب بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)[3].

وفي لفظ: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»[4].

أما الرياء فسبق تعريفه، وخلاصته: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها.

وأما السُّمْعة فهي مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر[5].

وعلى هذا فالتسميع لا يكون إلا في الأمور التي تسمع كقراءة القرآن، وذكر الله تعالى، والوعظ وغيرها.

والرياء يكون في الأعمال التي ترى كالصلاة والصدقة ونحوها.

إلا أن بعض العلماء يرى أن التسميع أوسع من هذا، فيدخل فيه تحدث الإنسان عن أعماله وإخباره بها التي لم يطلع عليها المتحدث.

وممن ذهب إلى هذا العز بن عبد السلام، كما حكاه عنه الحافظ ابن حجر في الفتح بقوله: «وقال ابن

---

(١) سبل السلام ٤/ ٣٥٦.

(٢) فتح الباري ١١/ ١٣٦.

(٣) رواه البخاري ، كتاب الرقاق/ باب الرياء والسمعة/ ١٣/ ١٦١، وكتاب الأحكام / باب من شاق شق الله عليه. ورواه مسلم كتاب الزهد والرقائق.

(٤) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق.

(٥) انظر: فتح الباري ١١/ ٤٠٨.

عبد السلام: الرياء أن يعمل لغير الله، والسمعة أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس»[1].

قال الدكتور عمر الأشقر: وعلىٰ ذلك فالرياء لا يدخل في العبادات القلبية كالخوف والرجاء بخلاف التسميع؛ لأن العبد قد يحدث عما يكنه قلبه يريد بذلك ثناء الناس يقول العز بن عبد السلام: «أعمال القلوب مصونة من الرياء، إذ لا رياء إلا بأفعال ظاهرة تُرىٰ أو تُسمع. والتسميع عام لأعمال القلوب والجوارح وقد عدَّ الصوم من الأعمال التي لا تظهر إلا بالتسميع.

وقسم التسميع إلى قسمين:

الأول: تسميع الصادقين، وهو أن يعمل الطاعة خالصة له، ثم يظهرها، ويسمّع الناس بها، ليعظموه، ويوقره، وينفعوه، ولا يؤذوه، قال: وهذا محرم. وقد جاء الحديث: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءىٰ راءىٰ الله به» وهذا تسميع الصادقين.

الثاني: تسميع الكاذبين وهو أن يقول: صليت ولم يصل، وزكيت ولم يزك، وصمت ولم يصم، وحججت ولم يحج، وغزوت ولم يغز، فهذا أشد ذنبًا من الأول. لأنه زاد علىٰ إثم التسميع إثم الكذب، فأتىٰ بذلك معصيتين قبيحتين، وجاء في الحديث الصحيح: «المتسمَّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[2].

يقول العز بن عبد السلام في ذلك: لو راءىٰ بعبادات، ثم سمع موهمًا لإخلاصها، فإنه يأثم بالتسميع والرياء جميعًا، وإثم هذا أشد من الكاذب الذي لم يفعل ما سمع به، لأن هذا أثم بريائه وتسميعه وكذبه ثلاثة آثام.[3]

ثانيا: ذم الرياء والمرائين

جاءت الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتي تذم الرياء والمرائين، وتبين أن هذه الصفة الخبيثة من صفات المنافقين، بل وتؤكد أنها من نواقض الإيمان الصحيح والدين الخالص

---

(١) فتح الباري ١١/ ٤٠٨.

(٢) المحفوظ: «من تشبع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور»، وهو بهذا اللفظ في البخاري ومسلم.

(٣) انظر: كتاب الإخلاص ص٩٥، وما بعدها. للدكتور عمر سليمان الأشقر.

لله عز وجل ، ومن النصوص القرآنية التي تتوعد المرائين قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ}(1)، وقوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}(2)، فتوعد الله عز وجل المرائين بالويل، والويل واد في جهنم والعياذ بالله.

وفي صحيح مسلم عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ(3).

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟) قَالَ:

---

(1)النساء: ١٤٢

(2) الماعون: ٤-٧.

(3) رواه مسلم في صحيحه كتاب: الجهاد/ باب: من قاتل للرياء والسمعة/ ١٠٨٩.

قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: (الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ) (١) ، وفي رواية قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إنّ أَخْوَفَ مَا أخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ الرّياءُ يَقُولُ اللهُ يَوْمَ القيَامَةِ إِذا جَزَى النّاسَ بأَعْمالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيا فانْظُروا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً)(٢).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، كلها تذم الرياء وتقبح من شأنه وتحرمه لما فيه من الأضرار والمفاسد العقدية والسلوكية والأخلاقية ، قال العلامة ابن حجر الهيتمي بعد أن ساق جملة من الأخبار التي تذم الرياء: وَالْمُعْنَى فِي تَحْرِيمِهِ وَكَوْنِهِ كَبِيرَةً وَشِرْكًا - مُقْتَضِيًا لِلَّعْنِ - أَنَّ فِيهِ اسْتِهْزَاءً بِالْحَقِّ تَعَالَى كَمَا مَرَّتْ الْإِشَارَةُ إلَيْهِ فِي الْأَحَادِيثِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ قَتَادَةُ كَمَا مَرَّ: إذَا رَاءَى الْعَبْدُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: انْظُرُوا إلَيْهِ كَيْفَ يَسْتَهْزِئُ بِي، وَيُوَضِّحُهُ أَنَّ أَحَدَ خُدَّامِ الْمَلِكِ الْقَائِمِينَ فِي خِدْمَتِهِ لَوْ كَانَ قَاصِدًا بِوُقُوفِهِ فِيهَا مُلَاحَظَةَ أَمَةٍ أَوْ أَمْرَدَ لِلْمَلِكِ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ كُلِّ مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنْ عَقْلٍ اسْتِهْزَاءً بِذَلِكَ الْمَلِكِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ تَقَرُّبًا إلَيْهِ بِوَجْهٍ مَعَ إيهَامِهِ أَنَّهُ عَلَى غَايَةٍ مِنْ التَّقَرُّبِ، وَحِينَئِذٍ فَأَيُّ اسْتِحْقَارٍ وَاسْتِهْزَاءٍ يَزِيدُ عَلَى قَصْدِك - بِعِبَادَةِ رَبِّك - مِثْلَك عَاجِزًا عَنْ نَفْسِهِ مِنْ سَائِرِ الْوُجُوهِ فَضْلًا عَنْك، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَصْدُك إيَّاهُ مُتَبَرِّعًا بِعِبَادَتِك يُنْبِئُ عَنْ اعْتِقَادِك فِيهِ أَنَّهُ أَقْدَرُ عَلَى تَحْصِيلِ أَغْرَاضِك مِنْ اللَّهِ فَرَفَعْت الْعَبْدَ الضَّعِيفَ الْعَاجِزَ عَلَى مَوْلَاك الْقَوِيِّ الْقَادِرِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الرِّيَاءُ مِنْ كَبَائِرِ الْكَبَائِرِ الْمُهْلِكَةِ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ ".

وَفِيهِ أَيْضًا تَلْبِيسٌ عَلَى الْخَلْقِ لِإِيهَامِهِ لَهُمْ أَنَّهُ مُخْلِصٌ مُطِيعٌ للهِ تَعَالَى وَهُوَ بِخِلَافِ ذَلِكَ بَلْ التَّلْبِيسُ فِي الدُّنْيَا حَرَامٌ أَيْضًا حَتَّى لَوْ قَضَى دَيْنَ إنْسَانٍ لِيُخَيِّلَ إلَيْهِ أَوْ إلَى غَيْرِهِ أَنَّهُ مُتَبَرِّعٌ حَتَّى يَعْتَقِدُوا

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٤٢٠٤)، وأحمد في المسند برقم ١١٢٥٢، قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد رجاله موثقون ٩/ ٢٢.

(٢)رواه أحمد في المسند ٥/ ٤٢٨ ، والطبراني في المعجم الكبير ٤/ ٢٩٩،والبيهقي في شعب الإيمان برقم: (٦٤١٢)، قال الهيثمي في المجمع: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَبِيبِ بْنِ خَالِدٍ، وَهُوَ ثِقَةٌ. مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٢.

سَخَاوَتَهُ أَثِمَ بِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّلْبِيسِ وَتَمَلُّكِ الْقُلُوبِ بِالْخِدَاعِ وَالْمَكْرِ.[1].

والرياء يؤثر على تزكية النفس بكل درجاته التي ذكرها الأمام الغزالي رضي الله عنه في الإحياء وبيانها كالآتي:

الأولى: أن يكون مقصوده بالرياء التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته وتقواه، ويظهر الورع بكثرة النوافل، والامتناع عن أكل الشبهات، وغرضه أن يُعرف بالأمانة والزهد فيولى القضاء، أو الأوقاف، أو الوصايا فيأخذها ، أو يُسلَّم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو تودع عنده الودائع فيأخذها ويجحدها ، وقد يظهر بعضهم الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن، يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن، وغرضهم ملاحظة النساء والغلمان، نسأل الله السلامة والعافية.

وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى؛ لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيته.

الثانية: أن يكون غرضه نيل مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة، كالذي يظهر الحزن والبكاء، أو يشتغل بالوعظ والتذكير، لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء.

فهذا رياء محظور؛ لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه، لكن عمله باطل لا ثواب عليه ، «قال الله عزَّ وجلَّ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ أو إدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته ويحسنها خوفاً من أن يُنظر إليه بعين النقص، ولا يُعد من الخاصة والزهاد كالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الاثنين، أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن يُنسب إلى الكسل والبخل، ويُلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لا يفعل شيئاً من ذلك ، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء وهو غير

---

(١)ينظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر للإمام أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ) ١/ ٧٠.

صائم فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم ، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء، ولولا رسوخ عرق الرياء في الباطن لما ظهر في الخارج قولاً أو فعلاً.

فهذه درجات الرياء، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، ومن شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل، يزل فيها فحول العلماء فضلاً عن عامة الجهلاء بآفات النفوس وعللها.[1].

نسأل الله السلامة والعافية.

(١)ينظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٥، والزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ٧١ ، وموسوعة فقه القلوب لمحمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري٤/ ٣١٥٧.

المطلب الثالث:

العجب

أولا: حقيقة العجب: هو أحد أخطر ثلاثة آفات التي تؤثر سلبًا على تزكية النفس ، فهو صنو الكبر والرياء ، والثلاثة تصرف أصحابها عن شكر الخالق إلى شكر أنفسهم، وعن الثناء على الله بما يستحق إلى الثناء على أنفسهم بما لا يستحقون، وعن التواضع للخالق والانكسار بين يديه إلى التكبر والغرور والمن بالأعمال، وعن احترام الناس ومعرفة منازلهم إلى احتقارهم وجحد حقوقهم.

والعُجْب بالضم: الزَّهْوُ والكِبْرُ، ورجلٌ مُعْجَبٌ: مَزْهُوٌّ بِمَا يكون منه حسنًا أَو قبيحًا. وقيل: المُعْجَبُ، الإِنسانُ المُعْجَب بنفسه أَو بِالشَّيْءِ. وقد أُعْجِبَ فلان بنفسه إذا ترفع وتكبر فهو مُعْجَب برأْيه وبنفسه. والاسم العُجْبُ وهذه المادة مما تدلُّ عليه كبر واستكبار للشَّيء[1].

وفي الاصطلاح : هو استعظام النّعمة والرّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم عزّ وجلّ[2] ، وقال أحمد بن يحيى بن المرتضى[3]: العجب مسرة بحصول أمر يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله بقول أو ما في حكمه من فعل أو ترك أو اعتقاد) [4] ،وقال أبو العباس القرطبي: هو إعجاب الرجل بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منة الله تعالى [5]، وقال

---

(١)ينظر: لسان العرب١/ ٥٨٢/ عجب، ومقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٢٤٣، تاج العروس للزبيدي ٣/ ٣١٨، المصباح المنير للفيومي ٢/ ٣٩٣.

(٢)ينظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٣٧٠.

(٣)هو أحمد بن يحيى بن المرتضى بن مفضل بن منصور بن مفضل وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب اليمني الزيدي ، الإمام المهدي عالم مشارك في كثير من العلوم ، ولد بمدينة " ذمار " وبويع بالإمامة في شوال سنة ٧٩٣ هـ بصنعاء ، وتوفي في ذي القعدة سنة ٨٤٠ هـ . من مؤلفاته : البحر الزخار الجامع لمذاهب الأمصار ، والأزهار في فقه الأئمة الأطهار وغيرها كثير، ينظر : معجم المؤلفين ١/ ٣٢٥ ، والبدر الطالع ١/ ١٢٢ .

(٤)ينظر: البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار٦/ ٤٩٠.

(٥)ينظر: طرح التثريب لأبي الفضل للعراقي ٨/ ١٦٨.

بشر بن الحارث- رحمه الله- : العجب أن تستكثر، عملك وتستقل عمل الناس أو عمل غيرك.[1]، فأقوال العلماء المختلفة في بيان حقيقة العجب تتلخص وتُجمع في أنه يعني: الزهو بالنفس، واستعظام الأعمال والركون إليها، وإضافتها إلى النفس مع نسيان إضافتها إلى المُنعم سبحانه وتعالى، فالعُجب شعور قلبي داخلي لا يُرى عملياً إلا بعض أثره فقط وخاصة في أوقات الغفلة من صاحبه، وقد لا يرى الناس آثاره أبداً وقد يكون متغلغلاً داخل النفوس وذلك لعظم الاحتياط والاحتراز ، هو إحساس بالاختلاف عن الناس والتميز عنهم وخصوصًا عن الأقران المشاركين في نفس العمل أو السلوك أو الصحبة.

ومنشأ العجب هو الجهل المحض، وعدم إعطاء النفس قدرها ومكانتها التي تستحقها، والتجاهل عن ضعفها وقصورها وتفريطها.

ثانيًا: الفرق بين العُجْب والكبر:

قال أبو هلال العسكري[2]: إنَّ العُجْب بالشيء، شدة السرور به حتى لا يعادله شيء عند صاحبه، تقول: هو معجب بفلانة. إذا كان شديد السرور بها، وهو معجب بنفسه. إذا كان مسرورًا بخصالها ، ولهذا يقال: أعجبه كما يقال سر به فليس العُجْب من الكبر في شيء، وقال علي بن عيسى: العُجْب عقد النفس على فضيلة لها ينبغي أن يتعجب منها، وليست هي لها [3].

ثالثاً: ذم العُجْب في القرآن والسنة:

ورد ذم العجب في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في أكثر من موضع تبين خطره، وتنبه على أنه آفة تجرُّ وراءها آفات دنيوية وعقوبات أخروية، منها:

- قوله تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

---

(١)ينظر: حلية الأولياء ٨/ ٣٤٨.

(٢)الحسن بن عبد الله بن سهل اللغوي الأديب، له عدة مصنفات منها "الأمثال" و"الفروق اللغوية"، توفي بعد الأربعمائة. ينظر: طبقات المفسرين ص ٣٣.

(٣)ينظر:الفروق اللغوية ص ٣٥٢.

عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}[1]، فالآية الشريفة تتحدث عن حال المسلمين الأول ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، وقد أخذهم شيء من العجب بالنفس والاغترار بالعدد والعتاد حتى قال قائلهم: لن نهزم اليوم من قلة ، وسرعان ما عادوا إلى صوابهم ، واحتموا بحمى بربهم ، فكان النصر حليفهم ، قال العلامة الألوسي رحمه الله في تفسيره: قوله سبحانه{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .... }، إلخ إشارة إلى أنه لا ينبغي للعبد أن يحتجب بشيء عن مشاهدة الله تعالى والتوكل عليه ، ومن احتجب بشيء وكل إليه، ومن هنا قالوا: استجلاب النصر في الذلة والافتقار والعجز، ولما رأى سبحانه ندم القوم على عجبهم بكثرتهم ردهم إلى ساعة جوده وألبسهم أنوار قربه وأمدهم بجنوده ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...}[2]، الآية، وكانت سكينته عليه الصلاة والسلام- كما قال بعض العارفين- من مشاهدة الذات وسكينة المؤمنين من معاينة الصفات.[3].

• قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا }[4]، قال العلامة الشوكاني في تفسيره: هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء[5]، وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: قال ابن عاشور: (ضرب مثلًا للفريقين: للمشركين،

---

(١) التوبة:٢٥.

(٢) التوبة:٢٦.

(٣) روح المعاني٥/ ٢٩٥.

(٤) الكهف: ٣٢-٣٦.

(٥) فتح القدير ٣/ ٣٨٨.

وللمؤمنين، بمثل رجلين كان حال أحدهما معجبًا مؤنقًا، وحال الآخر بخلاف ذلك، فكانت عاقبة صاحب الحال المونقة تبابًا وخسارةً، وكانت عاقبة الآخر نجاحًا، ليظهر للفريقين ما يجرُّه الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الإزراء، وما يلقاه المؤمن المتواضع، العارف بسنن الله في العالم من التذكير، والتدبر في العواقب، فيكون معرضًا للصلاح والنجاح[1]، وقال العلامة أبو زهرة رحمه الله في تفسيره: وهذا مثل ضربه اللهَّ تعالى وبينه للفاجر والبار، أعطى كل واحد خيرا ربما يقل أحدهما عن الآخر خيرا، أو لَا يقل ولكن أحدهما يستكثر ما أعطاه لا ليشكره، بل ليغتر ويحسب أنه أخذه أخذا ويذهب فرط غروره إلى أنه أخذ بفضل عقله، وأنه لن يضيع أبدا، ثم يذهب ليقمع غروره أو تنطفئ شعلة اغتراره، وتبدو له الحقيقة واضحة، وهي أنه لَا يملك من الأمر شيئا، أما الثاني صاحبه، يذكره بأصل خلقه وأنه لم يكن شيئا مذكورا، ويوجهه إلى الحمد والشكر على ما أعطى، ولنترك القول لرب العالمين فهو البليغ الذي أعجز بكتابه الناس أجمعين[2].

● قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}.[3]، قال الفخر الرازي في تفسيره: المراد منه أن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها فأنت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد، وأنت أضعف منهما بكثير، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له: تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي[4]، وقال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله: يقول العزُّ بن عبد السلام: (زجره عن التطاول الذي لا يدرك به غرضًا، أو يريد: كما أنك لا تخرق الأرض ولا تبلغ الجبال طولًا، فلذلك لا تبلغ ما تريده بكبرك وعجبك، إياسًا له من

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣١٨.

(٢) زهرة التفاسير ٩/ ٤٥٢٨

(٣) الإسراء: ٣٧-٣٨.

(٤)مفاتيح الغيب ٢٠/ ٣٤٢.

بلوغ إرادته[1].

• ولعل ما قصه القرآن علينا من نبأ قارون وعجبه بنفسه وماله خير مثال لذم العجب وسوء مآل أهله ، ولقد ورد ذكر قارون وقصته بتفصيل في سورة القصص ، قال تعالى: { إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.[2]، فكان غنى قارون سببا لإهلاكه ليس لذات الغنا ولكن لعجبه به حتى شغلته النعمة عن المنعم.

وفي سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحقر من شأن العُجْب ويذمه ، منها:

• عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[3]، قال أبو العباس القرطبي: (يفيد هذا الحديث ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عجب

---

(١)تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ٢١٩.

(٢)القصص: ٧٦ – ٨٣.

(٣)أخرجه البخاري في صحيحه ك: اللباس: ب/ من جرَّ ثوبه من الخيلاء/ ٥٧٨٩، ومسلم في ك: اللباس والزينة، ب / تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه/ ٢٠٨٨.

المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة[1].

• وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْإِمَامُ الْكَذَّابُ، وَالشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ)[2].

• وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ مِنَ الْخُيَلَاءِ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: الْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَاقَةِ، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ)[3]،

وغير ذلك من النصوص الشرعية التي تبين خطر العُجْب وتؤكد أنه سوء أدب من العبد مع الخالق سبحانه الذي قدر كل شيء بحكمته وأعطاه من النعم ما يختبره به، ولم يعطه النعم ليعجب بها ويتطاول بها على الخلق، فينسى المنعم سبحانه ويرى أثر كسبه فقط ، فينظر إلى عمله ويعجب به ويشعر بالزهو والفخر كلما خطر على باله ذكره ، قال الإمام الماوردي رحمه الله: وَأَمَّا الْإِعْجَابُ فَيُخْفِي الْمَحَاسِنَ وَيُظْهِرُ الْمَسَاوِئَ وَيُكْسِبُ الْمَذَامَّ وَيَصُدُّ عَنِ الْفَضَائِلِ [4].

---

(١)طرح التثريب ٨/ ١٦٩.

(٢)أخرجه أحمد في المسند برقم ٩٥٩٤، و النسائي في سننه ٥/ ٨٦ ، وأخرجه النسائي أيضا في المجتبى٥/ ٨٦، وفي الكبرى برقم ٧١٣٩ ولفظه عند النسائي: "أربعة يبغضهم الله عز وجل: البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر، وأبو يعلى برقم ٦٥٩٧) ، وابن حبان في سننه ٧٣٣٧ من طريق سعيد المقبري، عن أبي هريرة.

(٣)أخرجه الطبراني في الأوسط برقم ٥٤٥٢ ، والشهاب القضاعي في مسنده برقم ٣٢٦، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧٣١.

(٤)ينظر: أدب الدنيا والدين ص ٢٢٧.

الخاتمة

وبعد أن طوفنا بتوفيق من الله عز وجل وحوله وقوته حول موضوع تزكية النفس في القرآن الكريم ، يمكننا أن نستخلص بعد الأمور:ـ

١. تزكية النفس عملية تطهير و تنمية شاملة هدفها استبعاد العناصر الموهنة لإنسانية الإنسان و ما ينتج عن هذا الوهن من فساد و تخلف و خسران و تنمية كاملة للعناصر المحققة لإنسانية الإنسان و ما ينتج عن هذه التنمية من صلاح و تقدم و فلاح في حياة الأفراد و الجماعة.

٢. تزكية النفس هي مهمة الرسل عليهم السلام والمصلحين في كل زمان ومكان.

٣. وبزكاء النّفس وطهارتها يصير الإنسان زاكيا بحيث يستحقّ في الدّنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرّىٰ الإنسان ما فيه تطهيره.

٤. وسائل تزكية النفس متعددة ، منها: الإيمان بالله عز وجل إيمانا حقيقيا ، والمحافظة علىٰ العبادات والشرائع والفرائض، والعلم النافع ، ومحاسبة النفس ، والاستقامة علىٰ أمر الله عز وجل.

٥. وكما أن لتزكية النفس وسائل ، فهناك معوقات تقف حجر عثرة في طريق تزكية النفس ، وأهمها: الكبر والرياء ، والعجب .

وفي الختام إني لأعلم علم اليقين ، أن الكمال لله وحده ، وأما عمل الإنسان فهو لا يخلو من خطأ أو نسيان ، فما كان في هذا البحث من خير فمن الله وحده ، وإن كانت الأخرىٰ فمن نفسي ، والشيطان ، وحسبي أن الله أبىٰ الكمال إلا لنفسه ، وكتابه، وأنني بشر أصيب ، وأخطأ ، فكل مخلوق يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم الكريم علي حضرته أعظم الصلوات وأتم التسليمات .

وإني لأضرع إلىٰ المولىٰ الكريم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن أكون قد وفقت لما أصبوا إليه فهو الهادي إلي الصواب ، والموجه إلي الخير والرشاد ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

وصل اللهم وسلم وبارك علىٰ معلم الناس الخير سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

أهم المراجع والمصادر

القرآن الكريم

١- شعب الإيمان للبيهقي ط دار الكتب العلمية ١٤١٠ هـ ط أولى ٠

٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي ط دار الراية – الرياض الطبعة الثانية ، ١٤١٨

٣- الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ط عالم الكتب بيروت بدون تاريخ

٤- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان – للأمير علاء الدين على بن بلبان الفارسى ت ٧٣٩هـ – تحقيق شعيب الأرنؤوط – ط مؤسسة الرسالة بيروت ٠

٥- أحكام القرآن لابن العربي : أبي بكر محمد بن عبد الله ت ٥٤٣ هـ ، ط دار الفكر بيروت ١٤٠٨ هـ .

٦- أحكام القرآن للإمام الجصاص : أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ت ٣٧٠هـ ط دار الكتب العلمية بيروت .

٧- الآداب الشرعية للإمام الفقيه المحدث عبد الله محمد بن مفلح القدسي ت ٧٦٣ هـ ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٩ هـ بتحقيق شعيب الأرناؤوط .

٨- إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود (محمد بن محمد مصطفي العمادي الحنفي ت ٩٨٢ هـ ط دار الفكر بدون تاريخ) ٠

٩- أسباب النزول للواحدي : أبى الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري ت ٤٦٨ هـ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٥ هـ ٠

١٠- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ط عالم الكتب بيروت بدون تاريخ

١١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ط دار الرشيد بيروت ١٤٢١ هـ .

١٢- البحر المحيط للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ت ٧٥٤ هـ ط دار إحياء التراث العربي ط سنة ١٤١١ هـ ثانية ٠

١٣- البداية والنهاية للإمام ابن كثير ط مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر ١٤١٧هـ

١٤- التحرير والتنوير للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور ت ١٣٩٣هـ ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس .

١٥- تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار للسيد محمد شيد رضا ط دار المنار بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ سنة ١٩٥٣ م ط ثانية ٠

١٦- تفسير القرآن الحكيم محمد عبد المنعم خفاجي بتصرف ط دار العهد الجديد الطبعة الأولى بدون تاريخ

١٧- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم للإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم ت ٣٢٧هـ ط مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة ١٤١٩هـ

١٨- تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤ هـ ط دار التراث العربي بدون تاريخ ٠

١٩- تفسير القرآن العظيم للإمام عبد الرزاق الصنعاني ط دار المعرفة بيروت .

٢٠- تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ط البابي الحلبي – القاهرة ١٣٨٩ هـ ط ٤

٢١- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ط دار الكتب العلمية بيروت .

٢٢- جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوى ت ٦٤٣ هـ ط مكتبة التراث بمكة ١٤٠٨ هـ

٢٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ ط دار الفكر سنة ١٤٠٣ هـ ٠

٢٤- دلائل النبوة للإمام البيهقى (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى ت ٤٥٨ هـ) تحقيق د٠ عبد المعطى قلعجى ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥ هـ ط أولى ٠

٢٥- روح البيان للبروسوى إسماعيل حقى البروسوي ت سنة ١٣٧٠ هـ ط دار الفكر بدون تاريخ

٢٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي شهاب الدين السيد محمود الألوسي ت ١٢٧٠ هـ ط دار إحياء التراث العربي ط ٤ سنة ١٤٠٥هـ .

٢٧- زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٦ هـ) ط المكتب الإسلامي بيروت ط١ سنة ١٣٨٥ هـ سنة ١٩٦٥ م ٠

٢٨- زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله (١٣١٦ – ١٣٩٤ هـ) ط دار الفكر العربي

٢٩- سنن ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت ٢٧٥ هـ) ط دار الحديث بالقاهرة

٣٠- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن شعث السجستاني الأزدي ت ٢٥٧ هـ ط دار الفكر بدون تاريخ ٠

٣١- سنن الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت ٢٩٧ هـ) ط دار الفكر ١٤٠٨هـ ٠

٣٢- سنن الدارقطني (علي بن عمر الدارقطني ت ٣٨٥ هـ) ط دار المحاسن بالقاهرة ١٣٨٦ هـ

٣٣- سنن الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي السمرقندي ت ٢٥٥ هـ) ط دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ ط أولى ٠

٣٤- السنن الكبرى للبيهقي (أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي) ط دار الفكر بدون تاريخ .

٣٥- سنن النسائي (أحمد بن شعيب النسائي ت ٣٠٣ هـ) بشرح السيوطي وحاشية السندي ط دار الكتب العلمية بيروت ٠

٣٦- السيرة النبوية / لمحمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ت ٢١٨ هـ ط البابي الحلبي ١٣٧٥ هـ ٠

٣٧- شعب الإيمان للبيهقي ط دار الكتب العلمية ١٤١٠ هـ ط أولى .

٣٨- صحيح البخاري ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

٣٩- صحيح مسلم (الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت ٢٦١ هـ) دار إحياء الكتب العربية بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي

٤٠- طريق الهجرتين لابن القيم ط دار ابن القيم – الدمام – الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م

٤١- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري ت ٧٢٨ هـ ط البابي الحلبي سنة ١٣٨١ هـ ط أولي

٤٢- فتح البيان فى مقاصد القرآن للشيخ صديق حسن خان مطبعة العاصمة بالقاهرة ط سنة ١٩٦٥ م

٤٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ ط دار الفكر بدون تاريخ .

٤٤- فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ت٢٢٤هـ ط دار الكتب العلمية بيروت

٤٥- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي ط دار البشائر الإسلامية ١٤٠٨هـ

٤٦- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي ط المكتبة التجارية الكبرى ط٥ ٠

٤٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي ت ٥٢٨ هـ ط دار الفكر بدون تاريخ

٤٨- لباب التأويل فى معانى التنزيل للإمام علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى ت ٧٤١ هـ ط البابى الحلبى سنة ١٣٧٥ هـ ط ثانية ٠

٤٩- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ط دار الكتب العلمية ط١ -١٩٩٨م

٥٠- لسان العرب لابن منظور ط دار صادر بيروت

٥١- لطائف الإشارات للإمام عبد الكريم القشيري ت ٤٦٥ هـ ط دار الكتاب العربي بالقاهرة .

٥٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٢ هـ .

٥٣- المحرر الوجيز لابن عطية ط مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر – الدوحة ١٤٠٣هـ على نفقة أمير قطر

٥٤- مختار الصحاح للرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ط مكتبة لبنان

٥٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي ط دار الفكر

٥٦- المرأة في القصص القرآني إعداد أحمد محمد الشرقاوي ط دار السلام بالقاهرة ط٢- ١٤٢٤هـ.

٥٧- المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ت ٤٠٥ هـ وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام شمس الدين الذهبي ت ٨٤٨ هـ ط دار الكتب العلمية .

٥٨- مسند أبي داود الطيالسي : سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي- دار المعرفة بيروت ٠

٥٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي بدون تاريخ ، ط دار المعارف بتحقيق أحمد شاكر ١٩٥٧ م ، وطبعة مؤسسة قرطبة القاهرة بتعليق الشيخ شعيب الأرناؤوط .

٦٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت ٧٧٠ هـ ط المكتبة العصرية بيروت .

٦١- المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة (أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي ت ٢٣٥ هـ) ط مكتبة الرشد بالرياض .

٦٢- معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمي رحمه الله ط : دار ابن القيم بالدمام الطبعة الأولى ، ١٤١٠ - ١٩٩٠

٦٣- معالم التنزيل للبغوي الحسين بن مسعود ت ٥١٦هـ ط دار الكتب العلمية بيروت .

٦٤- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ت ٢٠٧ هـ ط دار السرور بيروت

٦٥- معاني القرآن وإعرابه للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري ت ٣١١ هـ ، ط سنة ١٤٠٨ هـ ط أولي ط عالم الكتب ٠

٦٦- المعجم الأوسط للطبراني تحقيق محمود شاكر ط مكتبة المعارف بالرياض ١٤١٥ هـ

٦٧- المعجم الكبير للطبراني ط دار البيان العربي ط ٢ بدون تاريخ ٠

٦٨- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للإمام فخر الدين الرازي ت ٦٠٦ هـ ط دار الفكر سنة ١٤٠٥ هـ ٠

٦٩- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ ط البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٢٤هـ

٧٠- مكارم الأخلاق للخرائطي محمد بن جعفر الخرائطي ط مكتبة السلام بالقاهرة .

٧١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ط دار الكتب العلمية .

٧٢- النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت ٤٥٠ هـ ط دار الصفوة بمصر سنة ١٤١٣ هـ ط١

٧٣- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦ هـ) ط المكتبة العلمية بيروت .

٧٤- التوقيف على مهمات التعاريف لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ). عالم الكتب القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م

٧٥- تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية للباحث ماجد عرسان ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار التراث – دار ابن كثير سنة النشر: ١٤٠٥.

٧٦- مناهج التربية الإسلامية و المربون و العاملون فيها للباحث ماجد عرسان الكيلاني، عالم الكتب – بيروت سنة النشر: ١٤١٦ – ١٩٩٥.

٧٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للعلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

٧٨- الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة

٧٩- للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) دار الكتب العلمية – بيروت.

٨٠- موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم لعدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، ط دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة/ الرابعة.

٨١- الأذكار النووية أو «حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار» لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)تحقيق: محيي الدين مستو ط: دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الثانية،١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

٨٢- أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع.

٨٣- إحياء علوم الدين للإمام محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، ط دار المعرفة بيروت.